



بلزك
المهارة الانسانية



8.9.2015

أسرار الأميرة دي كادينيان
قصة من الحياة الباريسية

فاسينو كان
قصة من الحياة الباريسية

ترجمة

ميسيل خموري

روايات بلزك ٢

بلزاک
المهارة الإنسانيّة

أسرار الأميرة دي كادينيان
قصّة من الحكمة البارسيّة

ثاسينو كان
قصّة من الحكمة البارسيّة

ترجمة
ميسيل خوري



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

BALZAC

LA COMEDIE HUMAINE

LES SECRETS DE LA PRINCESSE DE CADIGNAN

FACINO CANE

المهارة الإنسانية = La comedie humaine / بلزواك ؛

ترجمة ميشيل خوري . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٩ . -

١١٢ ص ؛ ٢٤ شم . - (روايات بلزواك ؛ ٢٠) .

المحتوى : أسرار الاميرة دي كادينيان ، فاسينوكان .

١ - ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢ - ٨٤٣.٠٠٩ ب ل ز م

٣ - العنوان (١) ٤ - العنوان الموازي ٥ - العنوان (٢)

٦ - العنوان (٣) ٧ - بلزواك ٨ - خوري ٩ - السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : - ٢٣٧٠ / ١٢ / ١٩٩٩

روايات بلزواك

« ٢٠ »

اسرار الاميرة دي كادينيان

إلى تيوفيل غوتيه

بعد كوارث ثورة تموز التي دمرت عدة ثروات ارستقراطية مدعومة من البلاط ؛ كان من مهارة السيدة الاميرة دي كادينيان ان نسبت الى الاحداث السياسية ما اصابها من خراب ناتج عن تبذيرها ؛ وكان الأمير قد غادر فرنسا مع العائلة المالكة تاركا الاميرة في باريس ، مصونة من ملاحقة الدائنين بسبب غيابه لأن الديون التي لا يكفي بيع الاملاك لسدادها ، لا تقع إلا عليه ، وقد صودر دخل حقّ البكورية (١) ؛ أخيراً كانت قضايا هذه العائلة الكبيرة لا تقل سوءاً عن حالة الفرع البكر من آل يوربون . هذه المرأة التي اشتهرت باسمها الأول : الدوقة دي موفرينيوز (٢) صممت ، بحكمة ، العيش منسية في عزلة عميقة ؛ وكانت باريس تتعرض لتيار من الاحداث المدوخة بحيث غيرت الدوقة دي موفرينيوز المتخفية تحت اسم الاميرة دي كادينيان ، وهو مجرد تبدل في الاسم يجعلها مجهولة من قبل القوى الفاعلة في المجتمع التي اتت بها ثورة تموز ، فلكن الاميرة صارت غريبة في بلادها .

إن لقب الدوق في فرنسا يفوق جميع الألقاب الأخرى حتى لقب الأمير ، بالرغم من ان هذه الألقاب لا تعني شيئاً في فرضية الشعارات الخالية من كل سفسطة ، وتوجد مساواة تامة بين النبلاء ، هذه

(١) حقّ البكورية : مبلغ غير قابل للتصرف يرفع من املاك الزوجين لمصلحة الابن البكر ، دون ان يفقد نصيبه من الميراث عند توزيعه وتقاسمه .

(٢) الدوقة دي موفرينيوز هي بطلة رواية « حجرة العاديات القديمة » التي كتبها بلزالد في العام ١٨٢٨ أي قبل عام من هذه القصة .

لا تعني هذه الألقاب شيئاً ، وتوجد مساواة تامة بين النبلاء ، هذه المساواة الرائعة حافظ عليها بعناية البيت المالک في فرنسة ، وما تزال موجودة حتى الآن ، على الأقل اسماً ، بفضل حرص الملوك على أن يعطوا لابنائهم لقب كونت البسيط في درجته . بفضل هذا النظام تمكن فرانسوا الأول من سحق بهاء هذه الألقاب المفخمة التي اعطاها الأمباطور شارك كنت واستعاض عنها الملك بالتوقيع : فرانسوا سيد فانف . وقد فعل لويس الحادي عشر أكثر من ذلك عندما زوج ابنته لنبييل لا لقب له ، هو بيير دي بوجو ؛ كما أن النظام الاقطاعي قد حطم في زمن لويس الرابع عشر بحيث أصبح لقب الدوق في عهده رتبة الشرف العليا في الارستقراطية ، واللقب الذي يتمناه الجميع ، غير ان عائلتين او ثلاث عائلات في فرنسة ممن كانت اماراتهم ذات ملكيات كبيرة في السابق وضعت فوق لقب الدوقية ؛ وبيت كادينيان الحائز على لقب دوق دي موفرينيوز لابنائهم البكر ، بينما الأبناء الباقون يسمون ببساطة الفارس دي كادينيان هو من هذه العائلات الاستثنائية ، وكما في السابق لدى أميرين من أمراء بيت روغن ، فإن لأمراء كادينيان حق توارث اللقب فيما بينهم . ويمكنهم توظيف حاشية ونبلاء في خدمتهم .

هذا الشرح ضروري لتجنب النقد الاحمق من أولئك الذين لا يعرفون شيئاً من الأشياء الكبرى لعالم يقولون انه سائر الى النزول وكثير ما الاشخاص يدفعون الى ذلك دون فهمه .

كان لآل كادينيان شعار من ذهب يضم خمسة شهب يجمعها رباط مخصر مع كلمة « انني اذكرك » كرمز ، والتاج مقفل دون حواف او سجع مهدبة ، إن عدداً كبيراً من الأجانب الذين يفدون الى باريس حالياً ذوو جهل مطبق في علم النبالة ، وهم يبدؤون بإطلاق لقب الأمير وكأنه زي شائع ! والواقع انه لا يوجد أمراء حقيقيون إلا أصحاب الملكيات الكبيرة ، ممن يخاطبون « بصاحب السمو » ان كره الطبقة النبيلة الفرنسية للقب أمير ، والأسباب التي دفعت لويس الرابع عشر لإعطاء الدرجة السامية الأولى للقب الدوق منعت فرنسة من المطالبة بلقب صاحب السمو لبعض الأمراء الموجودين فيها باستثناء أمراء نابوليون ،

وهذا هو السبب لاعتبار أمراء كادينيان - من الناحية الاسمية - في وضع أدنى من بقية أمراء القارة .

كان أفراد مجتمع سان جرمن يحيطون الاميرة بتقدير محترم لاسمها ، لرفعتها الدائمة وللبلايا التي حلت بها ولا يتطرقون اليها ولجمالها وهو الشيء الوحيد الذي احتفظت به من الرخاء الزائل وشكر لها هذا المجتمع ، وهي زينته لجوؤها إلى الاحتجاب بانحباسها في بيتها ، أكثر منه من أية امرأة أخرى ، تضحية كبيرة ، فلاشياء الكبرى يشعر بها دائماً بحرارة في فرنسا ، بحيث أن الاميرة قد كسبت باعتزالها كل ما كانت خسرت له لدى الراي العام وهي ما تزال في سنائها واشراقها ، فهي لم تكن تزور الا واحدة من اقدم صديقاتها ، هي المركيزة دي اسبار ، فلا تذهب الى الاجتماعات الكبرى ولا الى الحفلات ، بل ان الاميرة والمركيزة تتزاوران صباحاً وخفية تقريباً وعندما تأتي الاميرة للعشاء لدى صديقتها ، تغلق المركيزة بابها ، وكانت السيدة دي اسبار شديدة الاعجاب بالاميرة ، فبدلت مقصورتها في مسرح الايطاليين ، وتخلت عن الطابق الاول ، لتأخذ شرفة في الطابق الارضي ، بحيث يمكن للسيدة دي كادينيان أن تأتي الى المسرح دون أن تثير انتباه أحد ، وتغادره خفية .

قليلات هن النساء القادرات على ان يحافظن على رهافة ذوق تحرمهن من متعة جرّ منافسةٍ لهن وراءهن بعد سقوطها ، أو من المنّ بانعامهن عليها . ذلك وفرت الاميرة على نفسها نفقات الزينة الباهظة ، بالتنقل خفية في عربة المركيزة ، بشكل لم تكن لترضى به لو كان في العلانية ، وما من أحد يعرف الأسباب الدافعة للسيدة دي اسبار للتصرف بهذه الطريقة مع الاميرة دي كادينيان ؛ لكن تصرفها كان سامياً ، واقتضى لمدة طويلة عالماً من الأشياء الصغيرة لو نظر الى كل منها بمفرده لبدا تافها لكنها بمجموعها تبدو كبيرة .

كانت ثلاث سنوات ، في العام ١٨٣٢ ، قد غمرت بالنسيان مغامرات الدوقة دي موفرينيوز وبيتضت صفحاتها بحيث يجب بذل جهود لتذكر الظروف الجسيمة التي سادت حياتها السابقة . فمن هذه الملكة التي

عندها العديد من العشاق وامكن لطيشها ان يملأ عدة روايات ، لم يبق إلا امرأة ما تزال محافظة برقة على جمالها ، وهي الآن في سن السادسة والثلاثين ، لكنها تبدو في الثلاثين ، بالرغم من أنها أم للدوق جورج دي موفرينيوز ، وهو شاب في التاسعة عشر من عمره ، جميل كانطينوس وفقير كأيوب، ويمكنه ان يلقى الحظوة لدى النساء ، لكن امه تريد أن تزوجه من امرأة غنية ، وربما كان هذا المشروع هو سر المودة القائمة بينها وبين المركيزة التي يعتبر صالونها الأول في باريس ، حيث يمكنها أن تختار يوماً من بين الوريثات عروساً لجورج . وكانت الاميرة ترى أن لا بد من إنقضاء خمس سنوات قبل تزويج ابنها ، وستكون سنوات عجفاء مطلة ، إذ يجب لانجاح الزواج الجيد المحافظة على سلوك تسوده الرزانة.

كانت الاميرة تسكن في الطابق الأرضي من دائرة في شارع ميرومسنيل، بسعر معتدل ، وقد استفادت من بقايا بهائها وبذخها ، حيث بقيت اناقتها كسيدة كبيرة جليلة ، وقد أحاطت نفسها بأشياء جميلة تدل على وجود سام . فعلى حافة مدفاتها صورة مصفرة لشارل العاشر من اعداد السيدة دي ميربل (١) ، وقد نقشت أسفلها هذه الكلمات «أعطية من الملك» كما علققت على الحائط صورة زوجة شقيق الملك وقد كانت بصورة خاصة فائقة في معاملتها ؛ وعلى منضدة يبرق اليوم غالي الثمن ، بحيث أن ما من امرأة بورجوازية ممن يتفاخرن حالياً في مجتمعنا الصناعي النكد تجرؤ على اقتنائه ، فهذه الجراءة تصور المرأة بشكل مدهش . كان الألبوم يحوي صوراً من بينها نحو ثلاثين صديقاً حميماً ممن اعتبرهم المجتمع عشاقاً لها ؛ وكان هذا العدد افتراء ، ولو أنه اقتصر على عشرة ، وفقاً لقول المركيزة دي اسبار ، لكان هذا الاغتيال لطيفاً ومقبولاً . ففي الألبوم صور : مكسيم دي تراي ، وودي مارسى ، ودي راستنيك ،

(١) هي لينزينسكارو ، زوجة عالم النبات شارل فرنسوا ميربل (١٧٩٦ - ١٨٤٩) وكانت رسامة صور شخصية ، ورسمت لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، وارتبطت بصداقة متينة مع اللوق فيتز - جيمس فرسمته في لوحة « تمتبر تحفة فنية » في راي بيير لاروس .

والمركز دي اسفرينيون ، والجنرال مونريغو ، والمركز دي روتكول ، والمركز دي اجود اينتو ، والأمير غالاتيون ، والأدواق الشباب : دي غراتليو، ودي ركوره، ولوسيان دي ديومبره الشاب الجميل ، والفيكونت الشاب دي سريزي ؛ وكل هذه الصور قد رسمت بمهارة من قبل اشهر الرسامين (١) ؛ وبما أن الأميرة لم تعد تستقبل إلا اثنين أو ثلاثة من هذه المجموعة ، فانها تطلق بمرح على هذا الالبوم « مجموعة أخطائها » . إن الحظ العائر قد جعل من هذه المرأة أمًا طيبة . فخلال السنوات الخمسة عشر من عودة الملكية تمتعت بحيث لم يكن لديها مجال للتفكير بولدها ؛ لكن بعد أن لاجأت الى العزلة، فكرت هذه الانانية الشهيرة بأن عاطفة الأمومة المنطلقة الى ابعد حدودها ستصبح بالنسبة لحياتها الماضية غفراناً يؤكد أصحاب المشاعر الرقيقة الذين يغفرون كل شيء لام ممتازة : وكان يزداد حبها لابنها بعد أن لم يعد لديها شيء آخر تحبه ؛ والواقع أن جورج دي موفرينيوز هو أحد هؤلاء الاولاد الذين يرضون غرور أم ، وهكذا قدمت الأم من أجله كل تضحية : فهيات له اسطبلًا ومقر عربة وشقة تطل على الشارع تتألف من ثلاث غرف مؤثثة بدوق ، وحرمت نفسها من أشياء عديدة لتحفظ له بحصان ركوب ، وحصان جر وخدام ، ولم تحتفظ لنفسها إلا بوصيفتها ، واحدى خادمت المطبخ القديمت كطباخة ؛ وكان على ساعي الدوق أن يقوم بمهام شاقة قليلا ، فتويي الساعي القديم للمرحوم بودنور يمثل مهزلة مجتمع الظرف مع هذا الأنيق المفلس ، فهذا الساعي البالغ من العمر خمس وعشرين سنة يبدو دائما وكأنه في الرابعة عشر . وكان قادرا على أن يفرج الخيول وينظف العربات ويتبع معلمه ، ويرتب الشقة ويبقى في بهو الأميرة ليعلن عن قدوم الزائر في حال توقع زيارة هامة .

لو نفكر فيما كانت عليه، في عهد عودة الملكية ، دوقة دي موفرينيوز الجميلة ، احدى ملكات باريس ، ملكة رائعة ربما لقن مقامها الباذخ درساً لاغنى نساء لندن ، فاننا نتأثر لرؤيتها في قوعتها البسيطة في شارع ميرومستيل على بعد خطوات من قصرها الواسع الذي لم تتمكن أبة

(١) هم مجموعة من الفنانين الذين « ابتكروهم » بلزالك ووضع مفامراتهم ببراعة في مشاهد من الحياة الباريسية .

ثروة من سكناه والذي هدمته مطارق المضاربين . ثلاثون خادما لم يكفوا سابقا لخدمة هذه المرأة بشكل ملائم ، هذه المرأة التي امتلكت أجمل صالونات الاستقبال في باريس ، وأجمل الشقق ، واقامت أروع الاحتفالات ؛ أصبحت تعيش الآن في شقة من خمس غرف : بهو ، وقاعة طعام ، وصالون ، وغرفة نوم ، وغرفة حمام ، ولم يبق لديها من الخدم إلا امرأتان .

« آه إنها رائعة في معاملتها لابنها ، قالت المريضة دي اسبار ، هذه الثرثرة اللطيفة ، وهي مدهشة بدون تشدق ، إنها سعيدة . من كان يعتقد ان هذه المرأة الخفيفة قادرة على هذا التصميم الذي اتبعته بعناد ، وهكذا فان بطريركنا الطيب ، الذي شجعها بدا في غاية الوفاء معها ، وقد اقنع كوننة سنك - سني بزيارتها .

فلنعترف بأنه يجب ان تكون المرأة ملكة لتعرف كيف تتنازل عن العرش ، ولتنزل بنبل من وضع سام لم تفقده كلياً ؛ ووحدهم أولئك الذين يعرفون أنهم لا شيء في ذواتهم يبدون الأسف عندما يسقطون ، أو يدمدمون ويعودون الى ماض يعرفون انه لن يتكرر وأن الوصول لا يحدث مرتين ؛ وقد اجبرت ان تستغني عن الازهار النادرة التي تعودت ان تعيش بينها ، والتي تبرز جيداً شخصيتها إذ يستحيل الا تقارنها بزهرة فاخترت ان تحيا في طابق ارضي حيث يمكنها ان تستمتع بحديقة صغيرة جميلة ، مليئة بالشجيرات حيث العشب الأخضر دائماً يبهج عزلتها الهادئة .

كان بإمكانها الحصول على دخل سنوي يقارب اثنتي عشر ألف ليرة، وهذا الدخل الزهيد يتألف من مساعدة سنوية تقدمها دوقة دي نافارين العجوز عمدة الدوق الشاب ، وهي مساعدة دائمة حتى يوم زواجه ، ومن مساعدة أخرى ترسلها الدوقة أو كسل من عمق أرضها النائبة حيث تقتصد كعادة الدوقات العجائز اللواتي لا يعتبر هارباغون (١) إلا تلميذاً بالنسبة لهن .

(١) هارباغون : الشخصية في تمثيلية البخيل لموليير .

كان الأمير يعيش في الغربية منصرفاً الى خدمة أسياده المنفيين ، يقاسمهم حظههم التعس ، ويقوم بعمله باخلاص منقطع النظر ، وربما كان هو الأكثر ذكاء من كل حاشيتهم .

كان مركز الأمير دي كادينيان يحمي امراته في باريس ، ولديها قام المارشال الذي ندين له بغزوة افريقية بمباحثاته مع قادة الشرعية عندما قامت « السيدة » بمحاولتها الانقلابية في فئديه (١) ، فعزلة الاميرة وعوزها لا يثيران رغبة الحكومة الحالية .

باحساس الاميرة باقترابها من سن الأربعين ، سن البعد الرهيب عن الحب حيث لا يبقى للمرأة إلا الشيء القليل ، انصرفت الى دنيا الفلسفة ، فاخذت تقرأ وهي التي كانت خلال ست عشرة سنة تظهر الرعب الكبير من التطرق الى الأشياء الجدية ، فحل الادب والسياسة مكان التقى والورع الذي تعتبره النساء الاخباريات ملجأهن الأخير ، وقد تردد في الاجتماعات المخملية أن ديان تريد أن تؤلف كتاباً ؛ ومنذ أن تحولت الاميرة من امرأة جميلة فتانة الى امرأة روحانية بانتظار أن تتحول الى ذلك كلياً ، فقد جعلت من الاستقبال لديها شرفاً سامياً يميّز هذه الشخصية الفائقة ؛ وفي تمويهه على اهتماماتها السياسية ، أمكنها أن تخذع أحد عشاقها القدامى وهو دي مارسي ، الشخصية الأكثر تأثيراً في السياسة البورجوازية التي تقلدت الحكم في تموز ١٨٣٠ ، فكانت تستقبله أحياناً في المساء ، بينما المارشال وعدة شخصيات من انصار الشرعية يتداولون بصوت منخفض في غرفة نومها لاستعادة الملك الذي لا يمكن تحقيقه دون الاستعانة بالفكر ، وهو العنصر الأوحده في النجاح الذي ينسأه المتآمرون . إنه انتقام جميل تقوم به امرأة جميلة في أن تتلاعب بوزير أول تستخدمه حجاباً في مؤامرة ضد حكومته بالذات .

(١) المارشال بورمون هو قائد الحملة التي استولت على الجزائر في الصام ١٨٣٠ . و « السيدة » هي اللوكة « دي بري » ابنة فرانسوا الأول وكانت محاولتها الانقلابية الفاشلة في العام ١٨٣٢ .

هذه المفامرة الجديرة بأيام « فتنة المقلع » (١) المشهودة كانت موضوعاً لأجل رسالة معنوية في العالم وجهتها الأميرة الى الدوقة دي بري حول هذه المشاورات ؛ وقد تمكن الدوق دي موفرينيوز أن يذهب الى فنديه وأن يعود سراً دون أن يتعرض للشبهات ولكن ليس من دون تعرضه للأخطار التي أحاطت بالسيدة دي بري التي طلبت إليه العودة بعد أن لاحظت بأسف فشل فتنتها ؛ ولربما كانت يقظة هذا الشاب المتحمسة قد أحبطت الخيانة ؛ وأياً كانت أخطاء الدوقة دي موفرينيوز في أعين المجتمع البورجوازي ، فمن المؤكد أن سلوك ابنها قد غفر لها في أعين المجتمع الارستقراطي إذ تجلتى النبل والكبر في المخاطرة بالابن الوحيد والوريث للبيت التاريخي .

إن بعض الأشخاص المتصفين بالبراعة يصححون اخطاء حياتهم الخاصة بخدمات يقدمونها للحياة السياسية والعكس بالعكس ؛ لكن مثل هذا الحساب لم يكن في بال الأميرة دي كادينيان ، وربما لم يكن في خاطر جميع من يتصرفون على هذا المنوال ، إنما هي الاحداث تكون في معظمها وفق هذا الاتجاه المعكوس .

في احد أوائل الايام الجميلة من شهر ايار ١٨٣٣ ، كانت المركيزة دي اسبار والأميرة تدوران ، ولا يمكن أن نقول تتنزهان في المر الوحيد الذي يحيط بالبساط العشبي للحديقة ، نحو الساعة الثانية بعد الظهر حيث أشعة الشمس ساطعة وانعكاساتها على الجدران تخلق جواً دافئاً في هذا الحيز الضيق الذي تعطره الأزهار المهداة من المركيزة .

قالت السيدة دي اسبار للأميرة : سنفقد قريباً دي مارسي ، ومعه سيضيع املك الأخير في ثروة تؤمنينها للدوق دي موفرينيوز ، إذ أن هذا السياسي الكبير (٢) ، منذ أن لعبت به لعبتك الأخيرة ، وهو مفتون بك .

(١) فتنة المقلع : فتنة قامت ضد مدارين في فترة ١٦٤٨ - ١٦٤٩ قبل أن يبلغ لويس الرابع عشر سن البلوغ واستخدم فيها الثائرون على الحواجز مقلع الرمي بالحجارة لكن ثورتهم انتهت الى الفشل .

(٢) يذكر دي مارسي « بصفته سياسياً كبيراً » بكازيمير بيريه الذي قدا رئيس وزراء بعد ثورة تموز ١٨٣٠ ؛ وتوفي العام ١٨٣٢ .

أجابت الاميرة : إن ابني لن يتراجع أبدا عن نصره الفرع الملكي الثاني
وإن مات جوعاً ، وإن اضطرت للعمل من أجله ، لكن برت سنك -
سيني لا تكرهه .

- قالت السيدة دي اسبار : إن الاولاد ليست لديهم الارباطات
ذاتها التي يتقيد بها ذوهم .

- قالت الاميرة : كفانا حديثا في هذا الموضوع ، فاذا لم أتمكن ان
اقنع الكونتة دي سنك - سيني فسأزوج ابني بابنة أحد الحدادين .
كما فعل هذا الصغير من آل اسفرينيون .

- وهل احببت اسفرينيون ؟ سألت المرкитеة .

- اجابت الاميرة بحزم : كلا فسداجة دي اسفرينيون كانت نوعا
من حماقة الريفية وقد لاحظتها متأخرة جدا او - إن اردت - مبكرة
جدا .

- ودي مارسي ؟

- دي مارسي تصرف معي كأنني لعبة ، وكنت ما ازال صغيرة .
ونحن لانحب أبدا الرجال الذين يتصرفون كاساتذتنا ، أنهم يدعون
زهواتنا الصغيرة .

- وهذا التعس الصغير الذي شقق نفسه ؟

- لوسيان ؟ كان في الجمال كانطينوس . وشاعرا كبيرا ، لقد احببته
باخلاص وإامكنني أن أكون سعيدة معه ، لكنه كان يحب فتاة ، وقد
تخلت عنه للسيدة دي سريري ، ولو أراد أن يحبني ، هل كنت اتخلى
عنه ؟ !

- يا للفرابة لقد اصطلمت باحدى الاستيرات !

- قالت الاميرة : كانت فعلا أجمل مني ، لكن هاهي ذي ثلاث سنوات
وانا منصرفة الى عولة تامة .

ثم استأنفت بعد وقفة قصيرة : حسن ، هذه العزلة الهادئة ليس فيها ما يتبعني ، ولك وحدك أتجراً على القول أنني أشعر هنا بالسعادة ، متأثرة بالمعرفة السطحية دون أن يشغل هذا التأثير القلب . لقد وجدت جميع الرجال ، الذين عرفتهم ، صفاراً ومساكين وسطحيين ، ما من واحد منهم سبب لي أي اندهاش ؛ كانوا كلهم خاليين من البراءة، والكبر، والذوق ؛ كم وددت لو التقيت بواحد اثر في شخصيته .

سألت المريضة : أتكونين إذا ، يا عزيزتي ، مثلي ، لم تصادفي أبداً الحب رغم محاولتك أن تحبي .

– « ابدأ » أجابت الأميرة مقاطعة المريضة وهي تضع يدها على دراعها ؛ ثم توجهت الاثنتان لتجلسا على مقعد من خشب بسيط تحت عريشة ياسمين تجدد إزهارها ، وكل منهما قد صرحت بما في نفسها من الكلمات التي ترغب بقولها النساء في مثل عمرهن . تابعت الأميرة : مثلك ، ربما أحببت أكثر مما أحببت النساء الأخريات ، لكن عبر الكثير من المغامرات ، أشعر أنني لم ألق السعادة ، لقد قمت بحماقات كثيرة ، لكنها كانت ذات هدف ، وهذا الهدف كان يتراجع بمقدار ما كنت اتقدم ! في قلبي الهرم ، أشعر ببراءة لم تنخدش ، نعم ان تحت العديد من التجارب ، يكمن حب أول يمكن أن ينخدع ، وبالرغم من العديد من المتاعب والذبول ، فأنني ما أزال أشعر بالشباب والجمال يمكننا أن نحب دون أن نكون سعداء ، ويمكننا أن نكون سعداء دون أن نحب ؛ لكن أن نحب ونلقى السعادة ، أن نجتمع هاتين المتعتين الانسانييتين الكبيرتين هو الاعجوبة ، وهذه الاعجوبة لم تكتمل بالنسبة لي .

– « وكذلك بالنسبة لي » قالت السيدة دي اسبار .

– ان حسرة كبيرة نلاحقني في عزلتي : لقد تسليت لكنني لم احب

– أي سر لا يصدق ! هتمت المريضة .

– آه يا عزيزتي ، لكن هذه الاسرار لا يمكن ان نوح بها إلا لانفسنا
فما من أحد في باريس يصدقنا .

– « ولو لم نتجاوز سن السادسة والثلاثين لم نعترف بها على
الارجح » اضافت المركيزة .

– نعم ، عندما كنا في زهوة الشباب كان يملكنا غرور احمق ،
إننا نشبه أحياناً أولئك الشباب المساكين الذين يسوكون أسنانهم
ليوهموا الناس بأنهم تغدوا جيداً .

– أخيراً نحن ، ويبدو لي اننا مازال في حيوية تؤهلنا لاعادة
الكرة » قالت السيدة دي اسبار بفنح لطيف وهي تقوم بحركة براءة
جذابة .

استأنفت الاميرة بعد فترة توقف : عندما ذكرت لي في يوم فانت
ان بياتريس قد هربت مع كونتي ، فكرت في ذلك كل الليل ، يجب ان
تكون سعيدة جداً لتضحى بمقامها ومستقبلها ، وتتخلى عن كل شيء
في المجتمع .

قالت السيدة دي اسبار : انها حمقاء تافهة ، لقد سرت الانسة
دي توش لانا تخلصت من كونتي ؛ ولم تدرك بياتريس كم يشير إلى عدم
كفاءة كونتي هذا الهجر ، تقوم به امرأة سامية ، لم تجرب ابداً ان تدافع
عن سعادتها للزعومة .

– ستكون اذاً تعيسة ؟!

– هي كذلك الان . ما مضى أن تترك امرأة زوجها ؟ اليس هذا
اعترافاً من المرأة بعجزها .

. – اذا فأنت تعتقدين أن السيدة دي روشفيد لم تتصرف عن رغبة
في الاستمتاع بهدوء بحب حقيقي ، هذا الحب الذي مازال مباحجه
حلماً بالنسبة لنا .

كلا ، لكنها قلدت السيدة دي بوسيان ، والسيدة دي لانجه اللتين - والكلام فيما بيننا - في عصر أقل ابتداء من عصرنا - كانتا مثلك ايضا من الوجوه الكبيرة أمثال آل فالير ، وآل مونتسبان ، وديان دي بواتيه ، ودوقات اتامب وشاتورو .

- اوه ! لم يبق الا الملك يا عزيزتي . آه ! كم أود لو استحضر ارواح هؤلاء النسوة وأسألهن ...

- قالت المركزية مقاطعة الاميرة : لا ضرورة لانطاق الموتى فنحن نعرف نساء سعيدات وهن على قيد الحياة . إنها المرة العشرى التي أشرع فيها في حديث ودي حول هذه الانواع من الاشياء مع كونتة مونكورنة ، المرأة الاكثر سعادة في هذه الدنيا ، منذ خمسة عشر عاما مع اميل بلونده (١) ما من خيانة ، وما من فكرة ملنوية ، وهما الان وكأنهما في يوم حبهما الاول ، ولكننا كنا دائما نضايق ، ويقطع علينا الحديث في اللحظة الاكثر أهمية ، في هذا الشفء الكبير كانشغاف راستنيك والسيدة دي نوسنجن والسيدة دي كامب ، قريبتك ، وأوكتافا سر ، وهذا السر نجهله يا عزيزتي ، ان المجتمع يمنحنا الشرف الكبير باعتبارنا من الماجنات الجديرات ببلاط الوصي على العرش ، ونحن بريتان كتلميذتين داخليتين صغيرتين .

- انني سأكون سعيدة لو كانت براءتنا كذلك ، هفت الاميرة بتهمك ، انما هي أسوأ . وفي ذلك ما يدعو للخزي . ماذا تريدن ؟ اننا نقدم هذه الإمامة الجسدية لله تكفيرا عن مساع غير مجدية ، اذ من غير المحتمل ، يا عزيزتي ، ان نجد في خريف العمر الزهرة الجميلة التي فاتتنا خلال الربيع والصيف .

- ليس هذا هو الموضوع ، قالت المركزية بمد وقفة مليئة بالتأملات المتبادلة ، فنحن مازلنا على قدر من الجمال يوحى بالهوى ، ولكننا لن نقنع ابدا اي انسان ببراءتنا او بفضيلتنا .

- (١) اشار بلزالك في روايات ١٨٢٨ و ١٨٢٩ وخاصة حجرة العاديات القديمة ، وابينة حواء ، ورجل كبير من المقاطعات في باريس إلى علاقة إميل بالسيدة دي مونكورنة .
- (٢) تذكرة برواية الأب غوربو ، وقصتي بيت نوسنجن ، والسيدة فرمياني .

– لو ان الامر كذبة لزينت سريعاً بالتعليقات ، وخططت لها التحضيرات الجميلة التي تجعلها قابلة للتصديق والالتهام كثمرة لذيدة لكن الاقناع بحقيقة ! آه ! لقد أعيا ذلك الرجال العظام » . اضافت الاميرة مع احدى هذه الابتسامات الناعمة الجديرة بفرشاة ليوناردو دي فنسي لرسمها .

– « ان الاغبياء يحبون جيداً أحياناً » تابعت المريضة :

– « لكن ، حتى الاغبياء ليست لديهم سرعة التصديق في هذا الامر لاحظت الاميرة .

– اجابت المريضة ضاحكة : أنت على حق ، لكن من نبحت عنه لن يكون أحق ولا موهوباً فقط . انما لنحل هذه المشكلة يلزمنا رجل عبقري ، ففي العبقرية وحدها ايمان الطفولة والدين والحب ، وهي التي ترضى بعصب العينين . لاحظي كُنّا اليسر . والدوقة دي شوليو . لو اننا – أنت وأنا صادفنا رجلاً عباقرة فربما بدوا بعيدين جداً عنا ، ومنشغلين بأمور كثيرة ؛ ولبدونا نحن كثيرات الطيش ، أو الانجراف أو الانشغال .

– آه ! مع ذلك أريد جيداً الا اغادر هذا العالم قبل ان اعرف مسرات الحب الحقيقي ، هتفت الاميرة .

– قالت السيدة دي اسبار : لا يكفي أن توحى به ، انما يجب أن تبرهنى عليه . لقد رأيت كثيراً من النساء لم يكن الا ذريعة للهوى بدلا من أن يكن في آن واحد السبب والنتيجة .

– كان الهوى الاخير الذي أوحيت به شيئاً جميلاً ومقدساً وذاً مستقبلاً واعد ، فقد ساءت الصدفة لي في تلك المرة ، هذا الرجل العبقري الذي يلزمنا ، والذي يصعب اقتناصه ، لان النساء الجميلات اكثر عدداً من الرجال العباقرة ، لكن الشيطان تدخل في المغامرة .

– قصي علي اذا هذا يا عزيزتي ، فهو شيء جديد بالنسبة لي .

– لم الحظ هذا الهوى الجميل الا في منتصف شتاء ١٨٢٩ ، ففي كل يوم جمعة ، في الاوبرا ، كنت الاحظ في القاعة شابا في نحو الثلاثين من العمر ، قد اتى خصيصا من أجلي ، يشغل دائما المكان ذاته ، ينظر الي بأعين من نار ، انما بعض الغم لما بيننا من فارق ، أو ربما لتعذر نجاح مبتغاه .

– يا للفتى المسكين ! ان الحب يعمي البصيرة أحيانا ، قالت المركيزة

– كان يسرح خلال كل استراحة في البهو ، تابعت الاميرة وهي بتبسم السخرية المحببة التي قاطعتها بها المركيزة ثم استأنفت : « في مرة أو مرتين ليراني ، أو ليريني نفسه كان يقرب وجهه الى زجاج مقصورة مقابلة لمقصورتى ، وان تلقيت زيارة لاحظت انه متمسك على الباب ، بحيث يمكن ان يلقي علي نظرة عابرة ، وانتهى الى معرفة الاشخاص الذين يعاشرونني ، فكان يتبعهم عندما يتوجهون الى مقصورتى ليحظى بمتعة انفتاح بابي ؛ ولاشك ان الفتى المسكين قد عرف سريعا من أكون ، لانه كان يعرف بالنظر الدوق دي موفرنيز وحموي ، وسرعان ما وجدت مجهولي الغامض في مسرح الايطاليين في قاعة يتأملني فيها مواجهة باعجاب ، وفي نشوة بريئة : كان ذلك جميلا .

عند الخروج من الاوبرا ، أو من مسرح بوفون ، كنت اراه مسرعا بين الجماهير ، يزحمونه فلا يتحرك ، وكانت عيناه تبدوان أقل بريقا ، عندما يراني استند الى ذراع انسان أنير لدي ، غير أنه لم يوجه لي كلمة ، ولا رسالة ولا تلميحا . ألا تعترفين بحسن ذوقه ؟ ! أحيانا عندما كنت اعود الى قصري مع الفجر ، كنت أجد رجلي جالسا على مدخل مرآب عربتي .

كان لهذا العاشق عينان جميلتان جدا ولحية ثخينة طويلة
كمروحة ، وعنفقة (١) وشارب ، وعارضان ، فلا يرى من وجهه الا وجنتان
بيضاوان وجبين وضآء ؛ وأخيرا رأس عتيق بحق .

انت تعلمين أن الامير كان يدافع عن التويلري من ناحية الارصفة
في أيام تموز ، وعاد مساء الى سان كلو بعد أن فشلت المحاولة . قال
لي « كدت أقتل ، يا عزيزتي ، في حوالي الساعة الرابعة ، عندما وجه
الي احد الثوار بندقيته ، لكن رجلا شابا ذا لحية ، يخيل الي انني
رايته في مسرح الايطاليين ، وكان يقود الهجوم ، أزاح عني قسبة
البندقية . أصابت الطلقة رجلا آخر ، احد رقباء الفرقة ، وكان على
بعد خطوتين من زوجي .

هذا الشاب يجب أن يكون إذا جمهورياً ؛ وفي العام ١٨٣١ عندما
عدت للسكن هنا ، صادفته وقد أسند ظهره الى جدار هذا المنزل ، كانت
تبدو عليه الغبطة لنكبي ، إذ ربما بدا له أن هذه المصيبة تقرب بيننا ،
ولكن بعد فتنة سان - مري (٢) لم أعد أشاهده مطلقاً : لقد قضى فيها . .
عشية ماتم الجنرال لامارك ، خرجت سيراً على الأقدام مع ولدي ، وقد
تبعنا فتاي الجمهوري مرة أمامنا ، ومرة خلفنا ، من المادلين حتى ممر
البانوراما الذي كنت ذاهبة إليه .

— اهذا كل شيء ؟ سألت المركيزة .

— كلا يا عزيزتي ، هذا الحب كان كثير الكبر ، وقلب هذا الرجل
وند أن يتحدث إلي بالذات وسلمني رسالة على ورقة عادية موقعة
باسم المجهول .

— أرنها . طلبت المركيزة .

(١) Royale : اشمار بين الشفة السفلى واللفن (المترجم) .
(٢) جرت هذه الفتنة عقب الاضطرابات التي حدثت خلال جنازة الجنرال لامارك بتاريخ
٥ و ٦ حزيران وبلغت أشدها على حاجز دير سان - مري وقد خلفتها فيكتور
هوغو في رواية البؤساء .

– كلا يا عزيزتي ، هذا الحب كان كثير الكبر وقلب هذا الرجل كان كثير القداسة بحيث لا يجوز أن أفشي سره . هذه الرسالة ، على قصرها ، رهيبة بحيث تثير شغاف قلبي عندما أفكر فيها . هذا الرجل الميت سبب لي من الانفجالات أكثر من جميع الأحياء الذين قربتهم ، إنه يعود الى ذاكرتي باستمرار .

– اسمه ؛ سألت المركيزة .

– اوه ! اسم عادي جداً ، ميشيل كрستبان .

– ردت السيدة دي اسبار بحرارة : لقد أحسنت بتصريحك لي به ، فقد سمعت غالباً احاديث عنه . فهذا الميشيل كрستبان كان صديقاً لرجل شهير اردت سابقاً رؤيته ، وهو دانييل دارتز ، الذي يأتي مرة أو مرتين كل شتاء لزيارتي .

كرستبان هنا قتل فعلاً في سان مري ، ولم يكن ينقصه الأصدقاء . وقد سمعت انه كان أحد هؤلاء السياسيين الكبار الذين لا ينقصهم ، كما الأمر بالنسبة لدي مارسي ، إلا حركة بالون الظروف ليصلوا فجأة إلى ما يطمحون اليه .

– « من الأحسن إذا موته » قالت الأميرة وعليها مسحة كآبة غطت على أفكارها .

– أتريدين أن تلتقي في أمسية ما مع دارتز لدي ، وتحدثان عن الشبح الذي غاب .

– بكل طيبة خاطر ، يا عزيزتي .

– بعد هذه المحادثة بعدة أيام ، وعد بلونده وراستينياك اللذان يعرفان دارتز ، السيدة دي اسبار ، بأن يقنعاها بالمجيء للعشاء عندها ، كان يمكن بكل تأكيد لهذا الموعد أن يكون طائشاً ، لو لم يذكر اسم الأميرة ، فلغاؤها بالنسبة للكاتب الكبير لا يمكن أن يكون بغير اهتمام .

دانييل دارتز أحد الرجال النادرين في عصرنا ممن يجمعون الطبع الجميل الى الموهبة الفذة ، وهو لم يحظُ بعد بكل الشعبية التي تستحقها مؤلفاته ، لكن له تقديراً محترماً لا ينقصه شيء لدى النفوس المتميزة . إن شهرته ستكبر أيضاً دون شك ، لكنها وصلت الى مداها في عين عارفيه : إنه من المؤلفين الذين سيحتلون ، عاجلاً أو آجلاً ، مكانهم الحقيقي ، ولن يتبدلوا به أبداً .

كان نبيلاً فقيراً ، فهم عصره فاعتمد في كل شيء على شهرته الشخصية ، وقد صارع مدة طويلة على الحلبة الباريسية ، دون إرادة عم ثري دفعه الفرور إلى معارضة ابن أخيه وتركه فريسة الشقاء الأكثر قسوة ، ثم أوصى له بعد أن بلغ الشهرة بكل الثروة التي حرمه من بعضها بلاشفقة وهو كاتب مغمور ؛ هذا التضرع المفاجيء لم يبدل شيئاً من طبائع دانييل دارتز ، واستمر في عمله ببساطة جديرة بالأزمة السالفة ، وفرض احترامه مجدداً بحصوله على مقعد في مجلس النواب حيث اتخذ مكاناً من اليمين . فبعد ارتقائه سلم المجد تجول قليلاً في بلدان العالم وعرفه أحد أصدقائه القدامى ، وهو الطبيب الشهير هو رأس بيانسون على البارون دي راستينياك ، أحد كبار موظفي إحدى وزارات الدولة وصديق دي مارسي . هذان الرجلان السياسيان استجابا إلى طلب دانييل وهوراس وبعض أصدقاء ميشيل كرستيان الحميمين بسحب جثمان هذا الجمهوري ليتمكنوا من دفنه بشكل لائق .

إن الاعتراف بخدمة، تتعارض مع الصرامة الادارية المتقيد بها في تلك الفترة، التي سادت فيها الأهواء السياسية بعنف^(١) ، ربط إنصح التعبير بين دارتز وراستينياك ، وكان الموظف الكبير والوزير الشهير من الحنكة بحيث لم يفوتها هذا الظرف ليكسبها خلاله بعض اصدقاء ميشيل كرستيان الذين لم يكونوا مع ذلك يشاطرونه آراءه ، والذين والوا بعدها الحكومة

(١) بعد سحق الفتنة أعلنت بتاريخ ٧ حزيران ١٨٣٢ حالة الطوارئ في باريس ، وحول الموقوفون إلى مجلس عسكري لكن صحف اليسار هاجمت هذا الإجراء ، وجرت المحاكمة امام محكمة مدنية أصدرت احكاماً مختلفة على ٨٢/ موقوفاً منها ٧ احكام بالإعدام أبدلت فيما بعد إلى النفي .

الجديدة ، واحدهم وهوليون جيرو ، سمي أولا مقدم عرائض ثم أصبح مستشارا للدولة .

كانت حياة دانييل دارترز مخصصة كلها للعمل ، لا يخالط المجتمع إلا لاما وهو بالنسبة إليه كحلم ، وبيته دير هو فيه راهب جيس : الزهد نفسه في المطالب والانتظام نفسه في المشاغل . وأصداؤه يعرفون أن المرأة بالنسبة إليه ، حتى الوقت الحاضر ، ليست إلا خطراً يخشى منه دائماً ، لقد لاحظها طويلاً كي يتقي شرها ، ولكن لشدة دراسته لها انتهى الى جهلها كلياً ، مماثلاً في ذلك أولئك التكتيكيين المتعمقين الذين يهزمون دائماً في ميادين غير متوقعة عدلت فيها او عورضت بديهياتهم العلمية ؛ وقد بقي الولد الأكثر سذاجة بمظهر الملاحظ الأكثر علماً . هذا التناقض ، الذين يبدو مستحيلاً في الظاهر ، يمكن تفسيره جيداً من قبل أولئك الذين يدركون الهوة الفاصلة بين القدرات والعواطف : فبعضهم يشغل رأسه ، وبعض آخر يشغل قلبه ، ويمكن أن يكون انسان رجلاً عظيماً وندلاً ، كما يمكن أن يكون أحقق وعاشقاً متيماً . أما دارترز فهو أحد هذه الكائنات المحظوظة ممن جمعوا حدة الذكاء ورفعة المزاي العقلية الى قوة وكبر العواطف وهو بمزية نادرة، رجل عمل ورجل فكر في آن واحد ؛ وحياته الخاصة نبيلة وصافية ؛ وإن كان قد هرب من الحب بعناية حتى حينه ، فلأنه يعرف نفسه جيداً ، فهو يعرف مسبقاً مدى سلطة الهوى عليه ؛ وخلال مدة طويلة كانت المشاغل المجهدة التي يحفر بها الأرض الصلبة لؤلؤفاته المجيدة وبرودة الشقاء درعاً واقياً له ؛ وعندما حل اليسر بعد العسر كان على علاقة عادية جداً وشديدة الإبهام مع امرأة متوسطة الجمال ، لكنها تنتمي الى الطبقة الدنيا ، دون أية ثقافة ، أو حسن تصرف ، وهي محتجة بعناية عن جميع الانظار .

نسب ميشيل كرستيان الى الرجال العباقرة القدرة على تحويل المخلوقات الأكثر غلاظة الى كائنات خرافية رشبة، والحمقاوات الى نساء ذكيات ، والفلاجات الى مركيزات : وكلما كانت المرأة كاملة صفرت في عيونهم ، لأن مخيلتهم كما يتوقع عندئذ لا يمكنها أن تفعل شيئاً ؛ والحب

بالنسبة اليه حاجة بسيطة من حاجات الحواس لدى الكائنات الدنيا ، بينما هو بالنسبة للكائنات العليات الخلق المعنوي الأكثر سعة والأكثر جاذبية ؛ وقد اعتمد من أجل تأييد دارتز على مثال رافاييل وفورنارينا^(١) وكان يمكنه أن يقدم نفسه كنموذج لهذا النوع ، هو الذي كان يرى ملاكا في الدوقة دي موفرينيوز ، اما نزوة دارتز الغربية فيمكن تبريرها بطرق متعددة : ربما فقد الأمل على أن يلقي في هذه الدنيا امرأة تحقق الوهم العذب الذي يحلم به كل رجل فكر ويداعبه ؟ او ربما كان له قلب كثير الحساسية والرقة يصعب عليه أن يسلمه لامرأة مجتمع ؟ او ربما فضل ان يحسب حساب الطبيعة ويحفظ بأوهامه مراعيًا مثله الأعلى ؟ او ربما ازاح الحب معتبرا إياه غير متناسب مع أعماله ومع انتظام الحياة الرهبانية حيث يمكن للهوى أن يفسد كل شيء . منذ عدة أشهر ودارتز هدف لسخریات بلونده وراستنيك اللذين يأخذان عليه عدم معرفته بالمجتمع والنساء ؛ وبتصديقهما ندرك أن أعماله العديدة والمتقدمة لم تسمح له بالانصراف الى اللهو : كان يملك ثروة معتبرة ، ويعيش عيشة طالب ، ولا يتمتع بشيء ، لا بذهبه ولا بمجده ؛ فهو يجهل المباحج الحلوة للهوى النبيل والرقيق الذي توحى به بعض النساء الطبيبات المحتد والجيدات التربية أو تتأثر به . اليس معيبا بالنسبة إليه ألا يعرف إلا فظاظات الحب !

إن الحب المقتصر على ماتفضه الطبيعة هو في نظرهما أكثر الأشياء حمقا في العالم . واحد أمجاد المجتمع هو أنه خلق المرأة هناك حيث الطبيعة أوجدت الأنثى ؛ وخلق استمرارية الرغبة حيث الطبيعة لم تسع إلا لاستمرارية النوع ؛ وابتكر أخيرا الحب أجمل العبادات البشرية .

لم تكن دارتز يعرف شيئا من أناقة التعبير الجذابة ، ولا من براهين الود التي يسكبها الفكر والروح دون انقطاع ، ولا من هذه الرغبات المتسامية بطرائقها ، كان قد عرف المرأة لكنه جهل الالهية .

(١) فورنارينا : فتاة ايطالية جميلة ، ابنة خباز من روما ، عملت موديلًا لرافاييل ثم أصبحت خليلته .

– يجب ان تتوفر في المرأة لتحب فعلا كثير من زينة الروح والجسد وروعة الفن المدهش . اخيراً بتمجيد الانحرافات المعذبة في الفكر المشكلة للفتج الباريسي ، رثا هذان المفسدان لدارتز الذي يحيا على غذاء صحي دون اي افويه ، ودون أن يدوق اطياب المطبخ الباريسي الراقي ، وانارا بحماس فضوله . اما الدكتور بيانشون الذي كان دارتز يبوح له بأساره، فقد عرف أن هذا الفضول قد استيقظ اخيراً ؛ فملاقة هذا الكاتب الكبير مع امرأة مبتدلة ، وهي ابعدهما ترضيه عادة ، قد أصبحت غير محتملة، لكنه احتفظ بها نتيجة الخجل الشديد الذي يستحوذ على جميع الرجال المنزليين .

قال راستينيكا : عند امتلاك مجنّ مقطوع بالاشداق والذهب وقرص البيزون والتورتو من جهة واخرى ، كيف لا يلتمع هذا المحسن البيكاردي ويوضع على عربة ؟ إن لديك دخل ثلاثين الف ليرة ومكاسب قلمك، وقد اثبت مكانة شعارك واسمك بشكل تورية طالما تحراها قدامؤنا: دارتز تعني « الفن كالكنز في قدره » فكيف لاتزهو بذلك وتتنزه رافعاً هذا الشعار في غابة بولونيا ! إننا في عصر يجب فيه على الفضيلة ان تظهر نفسها .

وقال بلونده : إذا كنت تقرا مؤلفاتك على تلك البدنية المائلة للافوره(١) التي تشكل كل متعك فإنني اغفر لك الاحتفاظ بها ، اكن يا عزيزي إذا كنت تحيا على الخبز الجاف مادياً ، فإنك على النطاق الفكري ليس لديك حتى هذا الخبز .

استمرت هذه المناوشات الودية عدة أشهر بين دانييل دارتز وأصدقائه، وكانت قائمة عندما رجت السيدة دي إسبار راستينيكا وبلونده باقناع دارتز للمجيء للعشاء لديها ذاكرين له أن الأميرة دي كادينيان تحدها رغبة عارمة في رؤية هذا الرجل الشهير .

(١) لافوره : خادمة مولير الشهيرة .

هذه الأنواع من الفضول هي بالنسبة لبعض النساء كما القنديل السحري بالنسبة للأطفال ، متعة للاعين ، هزيلة نوعاً لكنها مليئة بحل الطلاسم ، وبقدر ماثير رجل الفكر العواطف عن بعد ، بقدر مايختب الأمل في الاستجابة لها عن قرب ، وبقدر ما يحلم به براقاً ، بقدر ما يظهر خائياً بعدئذ ، ووفق هذا المنظور فإن الفضول الخائب قد يصل غالباً إلى الإجحاف وبلونده وراستينبالايريدان خداع دارتز، لكنهما قالاً له وهما يضحكان بأن الفرصة الأكثر إغراء قد جاءت من تلقاء نفسها ليفسل ادرا ن قلبه ويتعرف على المتع السامية التي يمنحها حب سيدة بانيسية رفيعة المقام ، والأميرة واقعياً كلفة به ولبس هناك مايشاه ، بل إن نجاحه مضمون في هذا اللقاء ، بل سيكون من المستحيل عليه أن يهبط من المراقبة التي وضعته الأميرة في قمتها ، ولم يجد بلونده وراستينك أي حرج في أن ينسبها بادرة الأميرة إلى الحب ، إذ يمكنها ان تتحمل هذه القرية ، وهي التي يؤهل ماضيها لكثير من هذه الطرف ، وأخذ كل منهما يقص على دارتز مغامرات الدوقة دي موفرينيوز : حوادث طيشها الأولى مع دي مارسي ، ثم تناقضاتها الثانية مع دي أجودا الذي صرفته عن امراته منتقمة بذلك من السيدة دي بوسيان ، ثم ارتباطها الثالث مع دسغرينيون الشاب الذي صحبته إلى ايطالية مجازفاً بشكل رهيب من أجلها ، ثم كم كانت تصمة مع سفير مشهور ، وسعيدة مع جنرال روسي ، وكيف كانت مسبوعة الكلمة لدى وزيرى خارجية الخ .

أعلمهم دارتز أنه يعرف عنها أكثر مما يمكنهم قوله له وذلك عن طريق صديقه المسكين ميشيل كرستيان الذي عبدها سراً لمدة أربع سنوات حتى كاد ان يصاب بالجنون .

قال دانييل : كنت أرافق غالباً صديقي الى مسرح الإيطاليين وإلى الأوبرا ، وكان المسكين يجعلني أركض معه في الشوارع بسرعة الخيول لنبقى على موازاة عربية الأميرة نتأملها بإعجاب عبر الزجاج ، وبفضل هذا الحب نجا الأمير دي كادينيان من الموت عندما منع ميشيل أحد فتیان الفتنة من قتله .

قال بلونده مبتسماً : - حسن ، إن لديك موضوعاً جاهزاً للحديث ،
إتھا المرأة التي تلمك ، لن تكون قاسية إلا بركة ، وستدرك بلطف
وتطلعك على خفايا الإنافة ، لكن خذ حذرك ! لقد افترست ثروات عديدة ،
فديان الفاتنة هي إحدى أولئك المسرفات اللواتي لا يشترين بسنتهم
وتنفق من اجلهن الملايين ، انصرف إليها جسداً وروحاً ، لكن كن حريصاً
على مالك كذلك العجوز في طوفان (١) جبروده .

بعد هذه المحادثة غدت الأميرة بعمق اللجة ، ورقة الملكة ، وفساد
الدبلوماسيين وأبھام المسارة ، وخطر جنية البحر ، ولم يعد رجلا المرح
هذان قادرين على التنبؤ بنھاية دعابتهما ، بعد أن جعلنا من ديان
دي أوكل الباریسية الأكثر وحشية ، والمغناج الأكثر مهارة ، بل
المومس الأكثر إثارة في العالم ، وبالرغم من أنھما كانا على حق فإن المرأة
التي اعتبرها بهذه الخفة كانت في نظر دارتز قدیسة ومبجلة بحيث
لا يحتاج فضوله للقاء بها إلى استثارة ، وقد وافق على الدعوة مباشرة ،
ولم يكن الصديقان يريدان غير ذلك منه .

ذهبت السيدة دي اسبار لرؤية الأميرة منذ تلقيها الإجابة وبادرتها:
« ياعزيزتي ، عندما تشعربن في أحد الأيام القادمة بزهوة الجمال
والدلع فتعالني إلى سهرة عشاء لدي ، وسأقدم إليك دارتز ، ان رجلنا
العبقري من طبيعة متوحشة ، فهو يخشى النساء ، ولم يجبب أبدأ من
قبل ، فركزي انتباهك على ذلك ، انه مفرط في روحانيته ، وبساطته
تبعد عنك كل احتراس فتفويك فطنته ، وكلها استذكار ، تؤثر بعد
حين وتفسد كل المخططات ، قد تفاجئينه اليوم ، ولكنه في الغد لن
يكون ذلك الفر .

- قالت الأميرة : آه ! لو أنني في الثلاثين للهوت جيداً ، إن
ما نقصني حتى الوقت الحاضر هو رجل فكر اتلاعب به ، لم الق قبلا الا
موالين ولم احظ بمجابهين فكان الحب بالنسبة لي لهواً بدلاً من ان
يكون معركة .

(١) لوحة لجبروده تحمل هذا الاسم ، عرضت في العام ١٨١٠ .

– اعترفي يا اميرتي العزيزة بإنني كريمة جداً بالرغم من المثل القائل
« قبل أن تفكر بالآخرين فكر بنفسك » .

تبادلت المرأتان النظر وهما بتبسمان وشدتا على الأيدي بود ، فمن
المؤكد أن ما بين الواحدة والأخرى أسراراً أكثر أهمية لن تتوقف دون
شك على أنيل حظوة رجل أو تادية خدمة ما ، إذ أن الصداقات الحميمة
القابلة للاستمرار بين النساء لا تتوطد إلا ببعض هفوات مشتركة، وعندما
يمكن لصديقتين أن تقتل كل منهما الأخرى وترى كل منهما في يدها
خنجرًا مسمومًا ، فانهما تعرضان عند ذلك مشهداً لانسجام لا تعكره
إلا للحظة التي تتخلى فيها أحدها عن سلاحها دون انتباه .

إذا بعد ثمانية أيام من هذه المقابلة تمت لدى المريضة إحدى هذه
السهرات التي تستمر حتى الفجر والمخصصة للأصدقاء الخالص حيث
لا يحضر شخص دون دعوة فعلية ، وحيث تقفل الأبواب . هذه السهرة
خصصت لخمسة اشخاص هم إميل بلونده والسيدة دي مونكورن :
ودانييل دارتز وراستنيك والأميرة دي كادينيان ، وبأخذ وجود ربة
البيت بالحسبان فعدد الرجال مساو لعدد النساء .

لم تهيء الصدفة أبداً تحضيرات أكثر براعة مثل هذه المعدة للقاء دارتز
والسيدة دي كادينيان ، فالأميرة ما تزال تعتبر حتى الآن إحدى النساء
الأكثر براعة في تبرجها الذي يعتبر أول الفنون لدى المرأة ، وقد ارتدت
ثوباً من المخمل الأزرق ذا كمين عريضين أبيضين بتدليان ، وصداراً
ظاهراً ، وأحد هذه الأوشحة من التول المكرنش برقة والمطرز بالأزرق
الذي يرتفع بمقدار أربعة أصابع حول عنقها ويغطي كتفيها كما يشاهد
في بعض لوحات رفايل ، وقد زينت لها وصيفتها شعرها ببعض أزهار
الخلنج البيضاء المصفوفة بمهارة حول شلالات شعرها الأشقر وهو أحد
مظاهر فنتتها اكتسبتها الشهرة . من المؤكد أن ديان كانت تبدو
وكانها لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، فسنوات الراحة والعزلة الأربع

قد ردت الى اونها نصارته . الا توجد ايضا لحظات تعطي فيها الرغبة بنيل الاعجاب مزيدا من الجمال للنساء ؟ إن الإرادة ليست بدون تأثير على تغيرات الوجه ، فإذا كانت الانفعالات العنيفة لها القدرة على جعل البشرة البيضاء مصفرة لدى الاشخاص ذوي المزاج الدموي الكئيب ، وجعل الوجوه اللمفاوية مخضرة ، الا يجب ان نوافق على أن للرغبة والفرح والامل القدرة على إضاءة اللون وتذهيب النظر ببريق حي وإحياء الجمال بشعاع وهاج كصبح يوم رائق .

كان بياض الاميرة الشهرير قد اكتسب مسحة ناضجة منحتها هيئة موقرة ؛ ففي تلك الفترة من حياتها التي جعلتها تراجع نفسها اكثر من مرة وتراودها افكار متعقلة ، بدا جبينها الحالم السامي متوافقا بشكل مدهش مع نظرتها الزرقاء ، الهادئة ، الجليلة ، فكان من المستحيل على المتفرس الأكثر مهارة أن يلحظ مخططات او نية مبيتة تحت هذه الرقة الخارقة من القسمات إن بين وجوه النساء ما يخدع العلم ويحرف الملاحظة بهدوئه ونعومته ، ويجب أن تنهياً فرصة فحصها عندما تنطق الأهواء ، وهذا أمر صعب ، أو عند الكلام وهذا لن يفيد عندئذ في شيء : إذ أن المرأة تبدو في تلك الأثناء عجوزا ولا تخفي شيئا .

كانت الاميرة إحدى هؤلاء النسوة اللواتي لا يخترق لهن حجاب ، فهي تبدو كما تريد أن تكون : لعوباً ، طفلة تقنط ببراءتها ؛ او زكية جدية وعميقة تثير انقلق ؛ وقد أتت الى سهرة المركزية بنيسة ان تكون امرأة ناعمة بسيطة عرفت من حياتها خيبات الامل فقط ؛ امرأة تفمرها مسحة روحية ، مفترى عليها إنما مستسلمة ، أخيراً ملاكاً مقهوراً .

وصلت في ساعة مبكرة نتحتل الى جانب السيدة دي اسبار ركناً قريباً من المدفأة وتشاهد في الوضع الذي تحبه ، أحد هذه الأوضاع التي تحتجب فيها المعرفة تحت طبيعة ساحره ، أحد هذه الأوضاع المدروسة المتعمدة التي تبرز اقوام الجميل المنساب من القدم والصاعد

بلطف حتى الردف ليستمر باستدارات مدهشة حتى الكتفين مهينا
للأنظار كل المظهر الجانبي للجسم . إن امرأة غارية أقل استشارة من
امرأة في ثوب فصل بمهارة ليفطلي كل شيء وليظهر شكل كل شيء في
آن معاً .

في لباقة لا تبتكرها كثير من السيدات ، وأمام دهشة المركيزة
البالغة ، اصطحبت ديان معها ولدها الدوق دي موفرنبيوز ، وبعد لحظة
تفكير شدت السيدة دي أسبار على يد الأميرة اشارة الى إعجابها بذكائها
قائلة :

« إنني أفهمك ! بإظهارك لدارتز جميع الصعوبات دفعة واحدة ،
فلن تجدي ما ستتطلبين عليه » .

حضرت الكونتيسة دي مونكورنه مع بلونده ، وجاء دارتز مع راستينيالك
لم تقابل الأميرة الرجل الشهير بأي من عبارات المديح التي يفرقه فيها
الأشخاص العاديون لكنها أبدت له مظاهر المودة المقترنة باللفظ
والاحترام التي يمكن أن تكون خير تعبير عن تسامحها، ولا شك أن تصرفها
سيكون هكذا حتى مع ملك فرنسة ، أو مع الأمراء ، بدت سعيدة لؤبة
هذا الرجل الكبير ومسرورة لأنها سعب الى ذلك .

إن الأشخاص أصحاب الدوق الرفيع ، كالأميرة ، يتميزون خاصة
بطريقة إصغائهم : بشاشة بعيدة عن السخرية هي من التهذيب بمنزلة
الممارسة من الفضيلة ، فعندما كان الرجل الشهير يتكلم ، كانت تتخذ
وضعا منتبهاً هو أكثر اطراء الف مرة من المدائح الملتصقة .

تم هذا العرض المتبادل دون مغالاة ولباقة من قبل المركيزة ؛ وعلى
العشاء أجلس دارتز قرب الأميرة التي كانت بعيدة عن مظاهر مغالاة
المتدللين في اتباع الحمية فأكلت بشهية طيبة وبدت حريصة على ان
تتصرف كإمرأة طبيعية دون اية كلفة أو مسلك غريب ، وكانت تنتهز

الفرصة بين كل طبق وآخر وعندما يدور حديث عام لتدخل في حديث خاص مع دارترز منفردين . قالت له :

إن سر السعادة التي تغمرنى لوجودي بقربك هو الرغبة في الإطلاع على بعض ما يخص صديقاً مسكيناً لك مات من أجل قضية غير قضيتنا، إنما ترتبت له ، يا سيدي ، علي واجبات كبيرة لم أتمكن من معرفتها ووفائها في حينها ، مما أسف، له ويشاطرني في أسفي الأمير دي كادينيان إنني أعرف أنك أحد أعز أصدقاء ذلك الفتى التعس . إن صداقتكما المتبادلة النقية وغير المتزعزعة كانت دافعاً موهباً لي ، فلا تستغرب إذا رغبتني في معرفة كل ما يمكن أن تقوله لي عن هذا الانسان العزيز عليك ، وإن كنت أنتمي الى عائلة منغية وأدين بآراء ملكية ، فإنني لست في عداد أولئك الذين يعتقدون أن من المستحيل الجمع بين الولاء الجمهوري والقلب النبيل ؛ فالملكية والجمهورية هما الشكلان الوحيدان للحكم اللذان لا يخنقان المواطف الجميلة .

أجاب دانزيل بصوت متأثر : كان ميشيل كرستيان ، يا سيدتي ملاكاً ، وأنا لا أعرف بين أبطال العصر القديم رجلاً أسمى منه . احترسي أن تعتبره كواحد من أولئك الجمهوريين ذوي الأفكار الفتية الذين يريدون تجديد أيام الجمعية الوطنية(١) والظاف لجنة الخلاص العام . كلا إن ميشيل كان يحلم باتحاد فدرالي(٢) يشمل كل أوربة شبيه بالاتحاد

(١) هي الجمعية التي حكمت فرنسا من ٢١ أيلول ١٧٩٢ حتى ٢٦ تشرين اول ١٧٩٥ واعلنت الجمهورية وحكمت على لويس السادس عشر بالموت ، وعنها انبثقت لجنة الخلاص العام .

(٢) فكر جان جاك روسو من قبل بفكرة اتحاد اوروبي ، كما أن هنري الرابع كان قد وضع مشروعاً كبيراً لتعديل وضع أوربة بحيث تقف « جمهورية مسيحية » يديرها مجلس شيوخ أوروبي كذلك بطرق بلزاة مرة أخرى إلى هذا الموضوع في رواية المستخدمين على لسان ديروا الذي يعتبره صديقاً لميشيل كرستيان وله أفكاره نفسها .

السويسري . فلنعتزف فيما بيننا ! بعد حكومة الفرد الواحد الرائعة ، التي تلائم على ما أعتقد بصورة خاصة بلادنا ، كان نظام ميشيل هو تجنب الحروب في العالم القديم واشاداته على قواعد غير الغزو الذي حوله الى اقطاعات ، والجمهوريون على هذا الأساس هم الناس الأكثر قرباً الى فكرته لذلك تعاون معهم في تموز ١٨٣٠ وفي سان مري ؛ وبالرغم من أننا كنا مختلفين في الرأي فان رابطة الود بقيت متينة بيننا .

– « إن هذا أجمل مديح لطبع كل منكما » علقته بخجل السيدة دي كادينيان . تابع دانييل : « في السنوات الأربع الأخيرة من حياته ، لم يعترف إلا لي بحبه لك وقد متن هذا الاعتراف عرى الصداقة الأخوية على شدتها . انه وحده من أحبك كما يجب أن تحبتي . كم من مرة تلقيت زخات المطر معه ونحن نرافق عربتك حتى منزلك ، ننافس خيولك في السرعة لنبقى على المنطفة ذاتها من التوازي لنراك . . ونعجب بك ! » .

– « يترتب علي إذا دفع تعويض لكما يا سيدي » علقته الاميرة .

– « اجاب دانييل بلهجة ملؤها الاسى » : لماذا فقدنا ميشيل وليس هو الآن هنا ؟

– « لو بقي لما استمر طويلا في حبه لي على الأرجح » قالت الاميرة وهي تهز رأسها بحركة تعبر عن اللوعة . ثم تابعت . « إن الجمهوريين هم أكثر تزمناً في افكارهم منا نحن أنصار الحكم المطلق الذين نفرق في اخطاء التسامح . لا شك أنه كان يحلم بكما لي والحقيقة القاسية ستخيب حلمه ، فنحن – معشر النساء – ملاحقات بالافتراء والنميمة بقدر ما تعاون منهما في الحياة الأدبية دون أن نتمكن من الدفاع عن أنفسنا لا بالمجد ولا بالمؤلفات . إنهم لا يصدقون ما نحن عليه وإنما ما يحوكونه حولنا ، لقد حجبا سريماً المرأة المجهولة في شخصي تحت الصورة الكاذبة للمرأة المتخيلة والمعتبرة حقيقية في نظر المجتمع . كان يمكن لميشيل أن يعتقد أنني غير جديرة بالمواطف النبيلة التي اكتنّها لي ، وانني سأكون عاجزة عن فهمه .

وهنا هزت الأميرة رأسها وهي تموج خصلات شعرها الشقراء
المليئة بأزهار الخلنج بحركة سامية .

فهم دانييل كلّ ما عبرت عنه من شكوك مكدرّة ومن تعاسات مخبوءة
يعجز عنها الوصف : و نظر الى الأميرة التي استأنفت بتأثر
شديد : مع أنني في اليوم الذي رأيته فيه مجدداً ، بعد
مدة طويلة من ثورة تموز كانت تتمكنني الرغبة في أن أمسك بيده وأشد
عليها أمام الجميع تحت أعمدة واجهة المسرح الايطالي مقدمة له باقة
الازهار التي أحملها ؛ لكنني فكرت أن هذا التعبير عن شكري سيساء
فهمه ، فأشياء نبيلة كثيرة تمر حالياً وتعتبر حماقات من السيدة دي
موفرينيوز ولا يمكنني أبداً تفسيرها إذ لا يوجد من يعرف بحقيقة أمري
إلا الله وولدي .

هذه الكلمات التي همست في أذن المستمع بطريقة لا تلفت انتباه
المدعويين وبلهجة جديرة بأمهر الممثلات ، من شأنها أن تتوجه الى القلب
وهذا ما فعلته في نفس دارتز .

لم يكن الأمر يتعلق أبداً بالكاتب الشهير ، فهذه المرأة تريد تبرئة
نفسها لصالح رجل ميت ؛ إنها رضيت بالافتراء لكنها تريد أن تطمئن
على بقاء صورتها نقية في عيني من أحبها ، وأنه مات دون أن يتبدل
أفكاره عنها .

– أجب دارتز : إن ميشيل هو ممن يحبون بطريقة مطلقة ، وإن
اسأؤوا الاختيار يمكنهم أن يتألوا دون أن يكشفوا سر من وقع عليها
اختيارهم .

– « أكون قد أحببت هكذا ؟ » هتفت الأميرة بسعادة بالغة .

– نعم يا سيدتي .

– خلال أربع سنوات .

– « إن المرأة لا تتبلغ مثل هذا الأمر إلا وتشعر بالرضى والاعتزاز »
قالت وهي تلتفت بوجهها الناعم النبيل نحو دارتز بحركة مليئة بغموض
محتشم ، فإحدى أمهر مناورات هؤلاء الممثلات تتجلى في تغيير طرائقهن
عندما تحتاج الكلمات الى شدة البلاغة ، والتعبير بالأعين عندما يعجزهن
البيان وهذه التفاوتات الماهرة المنزقة ، في موسيقى حبهن الكاذب أو
الحقيقي تثير إغراءات لا تقهر .

استأنفت وهي تزيد من خفض صوتها ، وبعد أن تأكدت من إحداث
ما رغبت به من تأثير : « أليس في إسعاد رجل كبير ، وإبعاده عن مواقع
الجريمة تحقيق لغايته ؟

– ألم يكتب إليك ؟ . .

– نعم ، لكنني أريد أن أتأكد ، وثق ، يا سيدي ، أنه لم يكن
مخطئاً عندما أحلتي في هذا المكان السامي .

إن النساء تعرف كيف يوشحن كلامهن بقداسة خاصة ، فهن يشعن
فيه تأثيراً يبسط معنى الأفكار ويمنحها عمقاً كبيراً وإذا لم ينتبه مستمعهن
المنجذب بأقوالهن الى مضامينها ، فقد بلفن غايتها تماماً ، وهذه هي
غاية الفصاحة .

لو أن الأميرة لبست في تلك اللحظة تاج فرنسة ، لم يكن جبينها أكثر
بهاء منه تحت تاج شعرها الجميل الرفوع يصفرة كأنه برج والمزيتن
بزهراتها الخلنجية الجميلة ؛ وبدت هذه المرأة تسير فوق أمواج النيمة
كما مشى المخلص فوق أمواج بحيرة طبريا ، متسرلة بكفن هذا الحب
كملك في حالة إشعاعه ، وما من شيء يشعر بضرورة التصنع ،
ولا بالرغبة بالظهور كبيرة أو محبة . إنما هي البساطة والطمأنينة .

ما من رجل حي كان يمكنه أن يقدم للأميرة هذه الخدمات التي حصلت عليها من هذا الميت .

أما دارتز، المنصرف الى عمله المنزلي، الغريب عن تصرفات المجتمع، الملف باقنعة دراساته الواقعية ، فقد خدعته هذه اللهجة ، وهذه الكلمات ؛ وسحرته جاذبية هذه الأساليب الشبيهة ، وأعجبه هذا الجمال التام المتخمر بالشقاء المستكين الى العزلة ، وافتتن بالاقتران النادر بين الذكاء الحاد والروح الجميلة ، أخيراً رغب أن يجني تركة ميشيل كرستيان ؛ وكان بدء هذا الهوى كما لدى معظم كبار المفكرين بارقة ذهنية فبرؤيته للأميرة ، وتأمله شكل رأسها ، وحلاوة تقاسيمها ، وقامتها ، وقدمها ، ويديها بتكوينها الناعم وعن قرب مما لم يتيسر له وهو يرافق صديقه في عدوهما المجنون ، التمعت الظاهرة المدهشة لحاسة النظر الثانية المعنوية الخفية التي يجدها الرجل المغمم بالحب في نفسه .

بأي وضوح اناره الحب ، قرأ ميشيل كرستيان مكنون ذلك القلب وتلك الروح ؟ لقد كان داعية الاتحاد متنبئاً ايضاً ، ولا شك انه كان سعيداً . وهكذا بدت الاميرة في عيني دارتز ذات جاذبية كبرى، وقد احاطت بها هالة من الشعر ؛ وتذكر الكاتب خلال العشاء اعترافات الجمهوري اليائسة ، وآماله عندما خال نفسه محبوباً ؛ اما قصائد الحب الجميلة التي تملئها عاطفة حقيقية فقد انشدت إليه وحده بالنسبة لتلك المرأة ؛ ودون أن يشعر ، استغلّت ديان هذه التحضيرات الناتجة عن الصدفة .

إن من النادر أن ينتقل رجل ، دون تأنيب ضمير من وضع المؤتمن على الأسرار الى وضع المنافس ، ودارتز يمكنه ذلك دون لوم ؛ وفي لحظة ادرك الفوارق الكبيرة بين نساء النخبة ، هذه الزهرات في المجتمع المترف والنساء العاديات اللواتي مع ذلك لا يعرف منهن إلا عينة واحدة ؛ إذا فقد أخذ من الزوايا السهلة المنال ، الأكثر ليونة في روحه وعبقريته .

دفعته سداجته وعنف أفكاره للاستحواذ على تلك المرأة ، فوجد نفسه مكبوتاً بهذا المجتمع ، وبحاجز الطرائق التي وضعتها مهابة الأميرة - ولنقلها صراحة - بينها وبينه . وهكذا بالنسبة لهذا الرجل غير المتعود على احترام من يحبها ، وجد في هذه الطرائق شيئاً مسخطاً ، وطغماً أكثر قوة بقدر اضطراره لابتناعه ، والسكوت عن أضراره دون أن يكشف عن نفسه .

كانت المحادثة عن ميشيل كرستيان ، التي استمرت حتى وقت تناول التحلية ، ذريعة ملائمة لدانييل وللأميرة ليتحدثا بصوت منخفض : عن الحب ، والانسجام ، والتخمين ، ومناسبة لها لتظهر المرأة غير المقدرة والفتري عليها ، وله ليضع رجليه في حذاء الجمهوري المتوفي ويحل محله ؛ بل لربما وجد هذا الرجل البريء بطبعه نفسه منقاداً الى ضمف تأسفه على صديقه ؟ .

في اللحظة التي أخذت مدهشك التحليات تلتمع على المائدة تحت وهج الشمعدانات الكبيرة وتحت ظل باقات الأزهار الطبيعية التي تفصل بين المدعوين كسياج براق ملوّن بوفرة بالفواكه والحلويات ، رغبت الأميرة أن تختتم تنمة هذه الاعترافات بكلمة عذبة رافقتها إحدى هذه النظرات التي تبدو فيها النساء الشقراوات سمرارات وقد عبرت فيها بركة عن أن ميشيل ودانييل كانا روحين توأمين . اندفع دارتز بعدها في الحديث العام وقد غمرته غبطة طفولية ومسحة من الزهو جديرة بطالب كلية ؛ وتأنبت الأميرة بالطريقة الأكثر بساطة ذراع دارتز لتعود الى صالون المركيزة الصغير ؛ وعند اجتيازها الصالون الكبير مشت ببطء ، ولما تجاوزتها المركيزة المستندة الى ذراع بلونده بمسافة معتبرة ، وقفت مع دارتز قائلة : لا أريد أن أكون منيعة على صديق هذا الجمهوري المسكين ، وبالرغم من أنني التزمت بعدم استقبال أي إنسان ، فانت وحدك في هذه الدنيا تستطيع أن تدخل منزلي ، ولا تعتقد أن في ذلك محاباة ، فالمحابة لا توجد أبداً إلا بالنسبة للفرعاء ، أما أنت فيبدو لي وكأننا صديقان قديمان ، إنني أريد أن أرى فيك أخاً لميشيل .

لم يجد دارتز كلمة يجيب بها واكتفى بأن ضغط على ذراع الأميرة ؛ وبعد أن قدمت القهوة ، التفت ديان دي كادينيان بحركة غنج في شال كبير ونهضت ؛ فلم تبدُ من بلونده وراستينيك وهما من رجال السياسة السامية وممن ألفا عادات المجتمع الراقي أية بادرة دهشة بورجوازية من شأنها إبداء الرغبة ببقاء الأميرة ، لكن السيدة دي اسبار أجلست صديقتها وهي تهمس في أذنها « انتظري الى أن ينتهي الخدم من العشاء فالعربة غير جاهزة » . وأومأت بإشارة الى الخادم الذي حمل ثاينة صينية القهوة .

ادركت السيدة مونكورنه أن لدى المركيزة والأميرة ما تتساران به فنهضت وسحبت دارتز ، وراستينيك وبلونده يعيدا ؛ مستمتعة بهذه الهجمات الحمقاء المخالفة للمألوف التي تتفاهم فيها الباريسيات بشكل مدهش .

قالت المركيز لديان : حسن ! كيف وجدته .

— إنه فتى يُعشَق ؛ لكنه لم يخرج من القماط ، وفي الحقيقة فهذه المرة أيضاً وكما في كل مرة سيكون النصر دون معركة .

— إن هذا مخيب للآمال ، ولكن هناك وسيلة : قالت السيدة دي اسبار .

— وما هي ؟

— دعيني أكون منافسة لك .

— كما تريدن لكنني اتخذت قراري ؛ إن العبقرية هي طريقة تشغيل المخ ، ولا أعلم ما يُمثلك به القلب ، ولكن سنتكلم عن ذلك فيما بعد .
بسماع هذه الكلمة الأخيرة التي بدت غامضة عصية على الفهم تحولت السيدة دي اسبار الى المحادثة العامة ، ولم يبد عليها أنها قد تأثرت

من عبارة « كما تريدن » ولا متسرعة يدفعها الفضول الى معرفة نتيجة المقابلة . اما الأميرة فقد بقيت نحو ساعة تقريبا وهي تجلس على الأريكة قرب النار في وضع ملؤه اللامبالاة والاسترخاء شبيه بوضع ديدون في لوحة غيرين(١) ؛ كانت تستمع بانتباه شخص مستغرق وتنظر الى دانييل أحيانا ، دون أن تخفي إعجابها ؛ إنما ضمن حدود المؤلف ؛ وعندما قرّبت العربة انسحبت بعد أن صافحت المركيزة وأحنت رأسها للسيدة دي مونكورننه .

انتهت السهرة دون التعرض لذكر الأميرة ، إنما انتهزت فرصة ما يثيره حديث دارتز الذي نشر كنوز فكره ؛ ومن المؤكد أنه وجد في راستينياك وبلونده رفيقين من الدرجة اولى في خفة الروح وحدة الذكاء . اما السيدتان فتعدان منذ مدة طويلة من الاكثر رهافة عقل وحباً للمرح في المجتمع الارستقراطي . فكانت تنمة السهرة محطة في واحة ، وسعادة نادرة ومقدرة لهؤلاء الأشخاص وهم عادة فريسة الاستنفار في المجتمع ، والصالونات ، والسياسة . فبعض الكائنات يتميزون بأنهم بين الناس كما الكواكب الخيرة ، يضيئون بنورهم الافكار ، ويدفئون بأشعتهم القلوب . كان دارتز أحد هذه الارواح الجميلة ؛ هو كاتب ارتفع الى مستوى تعود فيه على التفكير الشمولي ، ونسي أن من الواجب الا يقال كل شيء أحيانا في المجتمع ومن المستحيل عليه أن يتحفظ تجاه الأشخاص الذين يحيا بينهم باستمرار، ولكن بما أن تفرداته تتسم بشكل شبه دائم بطابع من الابتكار فما من أحد يعترض عليها . هذه النكهة النادرة في المواهب ، وهذا الشباب المليء بالبساطة المميزان بحق لدارتز جعلنا من تلك السهرة حدثاً ممتعاً .

عندما خرج مع البارون دي راستينياك الذي أوصله إلى منزله، تحدثنا طبعاً عن الأميرة ، وكيف وجدها دارتز .

(١) غيرين (١٧٧٤ - ١٨٢٣) عرض لوحة « إينه تقص مغامراتها على ديدون في صالون ١٨١٧ وقد عرفت نجاحا كبيرا .

– إن ميشيل كان على حق في الهيام بها فهي امرأة فذة أجلب دارترز .

– « إنها فذة جداً » ، علق راستينيالك ساخراً ، من لهجتك أرى أن حبها قد سرى في عروقك ، ولن تمر ثلاثة أيام قبل أن تكون عندها ، ولما كنت أحد عتاق الخبيرين بباريس فسأعرف ماسيحدث بينكما .
إيه يا عزيزي دانييل أرجوك الا تفكر بأي تشابك في المصالح . أحب الأميرة كما تشاء إذا شعرت أن حبها قد تطرق إلى قلبك ولكن فكر بثروتك . إنها لم تطلب يوماً من أي كان فلسين فهي كثيرة الاعتزاز بأن آل اوكلل اهلها واهل كادينيان اهل زوجها ، لكنها حسب معرفتي قد سببت تبذير عدة ملايين عدا ثروتها التي كانت معتبرة . كيف ؟ ولماذا ؟ وبأية وسائل ؟ ما من أحد يعرف ، حتى هي بالذات لا تعرف . لقد رايتها منذ ثلاثة عشر عاماً تلتهم ثروة فتى ظريف وثرورة كاتب عدل عتيق خلال عشرين شهراً .

– منذ ثلاثة عشر عاماً ! لكن ما عمرها إذا ؟

– أجب راستينيالك ضاحكاً ألم تلاحظ اذا على المائدة ابنتها الدوق دي موفرنبيوز ذلك الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، والحال تسعة عشر وسبعة عشر تعطي . .

– ستة وثلاثين ، لم اعطها الا عشرين ! هتف المؤلف مندهشاً .

– ستقبل ذلك منك ، فلا تقلق من هذه الناحية ، وستبقى في العشرين من عمرها من أجلك ، وستدخل في العالم الاكثر سحراً .
عمت مساء ، ها أنت أمام بيتك . سنلتقي في الاسبوع القادم لدى الأنسة دي توش .

قال البارون ذلك وهو يرى العربة تدخل شارع بلفون حيث يسكن دارترز في بيت جميل يملكه .

اتاح دارتز للحب ان يتغلغل إلى قلبه على طريقة العم توبي(١) دون ان يبدي اية مقاومة ، وقد تجلى في هيام دون مآخذ وإعجاب مطلق ، وغدت الأميرة تلك المخلوقة الجميلة ، بل إحدى المخلوقات الاكثر تميزاً في باريس ، هذه المدينة المخيفة ، حيث كل شيء ممكن للخير أو للشر ، غدت الملاك المرجو ، أياً كانت صروف الزمان المعاناة .

لنفهم جيداً المتحول المفاجيء لهذا المؤلف الشهير ، يجب معرفة كل ما تركته الوحدة والعمل المستمر من براءة في القاب ، وكل ما تمناه حب اقتصر على الحاجة ، وغدا مملأً قرب امرأة وضيعة ، من رغبات ونزوات وما أثاره من أسف ، وما ولده من عواطف إلهية في صميم الروح . كان دارتز فعلاً اليافع ، أو الطالب الذي كشفته فجأة حصافة الأميرة ؛ كما ان إشراقه مماثلة تقريباً تمت لدى ديان الجميلة . لقد التقت أخيراً بهذا الرجل السامي الذي تشتهيهِ كل النساء ، حتى وإن كان للتلاعب به ، استجابة لتلك القدرة التي ينسحق لإطاعتها ويجدن السرور في كبحها . لقد وجدت أخيراً سعة الذكاء مقترنة ببراءة القلب وجددة الهوى ، ثم رأت بسعادة خارقة كل هذه المواهب مقترنة بشكل أعجبها . بدأ لها دارتز جميلاً ، وربما كان كذلك ، بالرغم من انه وصل الى عمر الوقار في الرجل ، فقد احتفظ وهو في الثامنة والثلاثين بزهرة الشباب نتيجة ممارسة حياة قانعة وعنيفة ، واكتسب بدانة معقولة كجميع رجال المكاتب وموظفي الدولة ؛ وقد بدأ في مطلع شبابه على بعض شبه بونابرت ، جنرالاً ، وهذا الشبه ما يزال ظاهراً بقدر ما يمكن لرجل ذي عيني سوداوين وشعر غزير داكن ان يشبه هذا العاهل ذا العينين الزرقاوين والشعر الكستنائي لكن كل ما كان في عيني دارتز من طموح مضطرب شهيم بدأ وكأنه قد تطرى بالنجاح ؛ فالأفكار التي تفرج جبهته العريضة قد أزهرت ، وأخايد وجهه قد امتلات ، والرفاهية نشرت

(١) في رواية تريسترام شندي لسترن .

الوانا ذهبية في الامكنة التي مزج الشقاء فيها خلال شبابه الوانا صفراء من امزجة تتوتر قواها لتدعم صراعات ساحقة ومستمرة . ولو تلاحظون بانتباه وجوه الفلاسفة القدامى لوجدتم فيها باستمرار تحولات النموذج الكامل للوجه البشري ، حيث كل سحنة لها تفردها ، وقد تصححت كلها بعبادة التأمل والهدوء الثابت الضروري للأعمال الفكرية ؛ والوجوه الأكثر تفضلاً كوجه سقراط تصبح مع الزمن في صفاء إلهي . الى جانب هذه البساطة التي تتوج رأسه الامبراطوري ضم دارتز ملامح ساذجة ، وبراعة طفولية ، ورقة مؤثرة ؛ ولم يكن يراعي تلك المجاملة المبطنه دائماً بالنفاق ، التي يعوض بموجها الاشخاص الاكثر تهديباً والاكثر تودداً في هذا المجتمع عن المزايا التي تنقصهم ، والتي تجرح اولئك الذين يكتشفون أنهم قد خدعوا . كان يمكن ان تفوته بعض القوانين الاجتماعية نتيجة عزلته ، لكن بما انه لا يجرح الإحساس ابدأ، فإن هذه النفحة من التوحش تجعل أكثر لطفاً البشاشة الخاصة بالرجال ذوي المهبة الكبرى الذين يعرفون كيف يتخلون عن شموخهم في منازلهم ليسا يروا المستوى الاجتماعي فيتدنوا بفكرهم بحيث يفهمهم البلهاء ، ويقدموا ظهورهم ليركب عليها الاطفال كما فعل هنري الرابع (١) .

لم تفكر الاميرة عند عودتها الى بيتها بأن دارتز سيقاوم ما رمته به من إغراء ، فكل شيء قد تم بالنسبة لها : فهي تحب بكل ما تملكه من علم ومن جهل ، وإن تساءلت بينها وبين نفسها فلكي تتأكد من انها

(١) قصة تاريخية عن هنري الرابع تذكر انه كان يلعب مع اطفاله وكان احدهم يركب على ظهره والملك يخبئ كالحصان عندما أدخل عليه سفير اسبانية فدار الحوار التالي :

الملك : هل انت اب يا حضرة السفير .

السفير: إنني أنعم بهذه السعادة يا سيدي

الملك : في هذه الحالة يمكنني ان أتم دورة الفرفة .

وقد جعل انفرس من هذه الحكاية لوحة بعنوان : هنري الرابع يلعب ابناؤه ويستقبل سفير اسبانية وعرضها في صالون ١٨٢٤ فلاققت شهرة كبيرة .

تستحق مثل هذه السعادة الكبرى مفتشة عن السبب الدافع للسماء لترسل لها مثل هذا الملاك ! لقد أدركت سمو العاقرة ، وخمنت بأنهم لا يخضعون النساء النخبة للقوانين العادية ، وهكذا فبلمحة مختصرة سريعة خاصة بهؤلاء النساء الذكيات ، وعدت النفس بالاستجابة لأول رغبة ، ووفقاً للفكرة التي كوتتها عن طبع دارتز في اللقاء الأول ، توقعت أنه لن يعبر سريعاً عن هذه الرغبة بحيث سيمر وقت قبل أن يفعل ما تريد ، وما يجب أن تظهر فيه أمام هذا العاشق السامي .

هنا بدأت إحدى هذه المهازل المجهولة التي تدور في صميم الضمير بين متحاورين أحدهما خادع والآخر مخدوع ، مهزلة تبعد حدود الفسق ؛ إحدى هذه المآسي السوداء الهزلية التي تبدو مأساة طرطوف الى جانبها ترهة من الترهات ، لكنها ليست أبداً من المجال المسرحي ، فهي بالرغم من غرابتها طبيعية . ومعقولة ، ومبررة بالضرورة ؛ مأساة رهيبة يجب أن تسمى الوجه الآخر للذيلة او مقلوبها .

بدأت الأميرة بإرسال من يأتي لها بمؤلفات دارتز ، ولم تقرأ حتى الكلمة الأولى ، ومع ذلك فقد أقامت مناقشة تقرظية لمدة عشرين دقيقة معه دون لبس ! ثم قرأتها كلها إذ أرادت أن تقارن هذه الكتب مع أحسن ما أنتجه الأدب المعاصر ، بحيث أحست بالتحمة الفكرية في يوم مجيء دارتز لزيارتها .

كانت تنتظر هذه الزيارة ، كل يوم ، فتتبرج في أحسن زينة ، تلك الزينة المعبرة عن فكرة تجعلها مقبولة في عينيه ، دون أن يعرف كيف ولماذا ؟

ظهرت أمام ناظره بزة متناسقة ، بألوان رمادية ، وكأنها في نصف حداد ، فبدت في تظارف مليء بالمقوية ، إنها بزة امرأة لا تتمسك بالحياة إلا ببعض روابط طبيعية وهي تتبرم منها لولا وجود ابنها على الأرجح ؛ انها تظهر ساماً أنيقاً من الحياة لا يصل بها الى حد الانتحار انما

الى إنهاء حياتها في سجن أرضي شاق . استقبلت دارتز كامرأة تنتظره
وكانت زارها من قبل مئة مرة ، وانعمت عليه بمعاملة الصديق القديم ،
وشجعتة بحركة واحدة أن يستريح كما يحلو له مشيرة الى أريكة عريضة
ليجلس ريثما تتم رسالة بدات بكتابتها .

بدات المحادثة بالشكل العادي تماماً ، عن الطقس ، والوزارة ،
ومرض دي مارسي ، وآمال الشرعية ، ودارتز من أنصار الحكم المطلق ،
والأميرة لا يمكن أن تجهل آراء رجل يمثل مع خمسة عشر أو عشرين رجلا
حزب الشرعية في المجلس النيابي ، ووجدت وسيلة لتقص عليه كيف
تلاعبت بدي مارسي ، لتنتقل بعدها إلى التحدث عن إخلاص الأمير
دي كادينيان للعائلة المالكة وللسيدة دي بري لتوجه انتباه دارتز
الى الأمير .

« إته يتميز بمحبته لمعلميه وإخلاصه لهم ، وطبعه العام يعزيني
عن طبعه الخاص : ثم تابعت تاركة جانباً الحديث عن الامير » ألا تلاحظ
وأنت العارف بكل شيء أن للرجال طبيعتين ؟ احدهما في بوتهم ،
لنسائهم ، وحياتهم السرية ، وهي الحقيقية حيث لا قناع ، ولا تورية
اذ لا يكلفون انفسهم بالتظاهر فيبدون على ما هم عليه ، وهم غالباً
رهيبون . ثم طبيعتهم في المجتمع ، مع الآخرين ، في الصالونات ،
والبلاط ، ومع الملك ، والسياسة التي تراهم كباراً ونبلاء ومتسامحين
في بزات مطرزة بالفوائل ، مزينين بالكلام المعسول ، ملء أعطافهم المزايا
الشهية . يا للسخرية الرهيبة ! ومع ذلك يندهش الناس أحيانا من
ابتسامه بعض النساء ومظهر استعلائهن على أزواجهن ، ولا مبالتهن .

تركت يدها تسقط على طول متكأ أريكتها ، دون أن تكمل حديثها
لكن هذه الحركة اتمت بشكل مدهش خطابها ، وعندما لاحظت أن
دارتز مشغول بالتأمل في قوامها اللدن المتشني على أريكتها الوثيرة وهي
تداعب طيات ثوبها وتعبث بزوار عريض يشد خصرها ، وهي جراءة في
التزين لا تلائم إلا الأجسام الرشيقة فلا يضيع على الناظر شيء من مفاتنها،
استطردت وكأنها تتحدث مع نفسها ، لن أستمع فقد انتهيتم أنتم الكتاب

الى اثرة السخرية من النساء اللواتي يدعين تجاهلهم ، المعانيات من زواج فاشل ، اللواتي يخلقن جواً مؤثراً أو ملفتاً للانتباه ، وهذا ما يبدو لي في منتهى السطحية ، فاما أن نرضخ وينتهي الامر . وأما ان تقاوم ويسخر بنا ، وفي الحاليتين يجب أن نسكت ، والواقع أنني لم اعرف لا أن أرضخ تملأ ، ولا أن أقاوم تملأ ، لكن ربما كان هذا سبباً أكثر وجهة للالتزام بالصمت ، أية حماقة تدفع النساء للشكوى فإذا لم يكن هن الاكثر قوة ، فقد فاتهن الذكاء ، والحصافة والرقّة ، وهن يستحققن نصيبهن ! السن ملكات في فرنسة ؟ انهن يلعبن بكم كما يردن ، ومتى أردن ، وطالما أردن (وأخذت ترقص مجمرة عطبرها بسفاهة أنثوية وبمرح ساخر) . لقد استمعت غالباً الى بعض فئات بأنسات صغيرات يأسفن لكونهن خلقن نساء ، ويردن أن يكن رجالاً ، كنت أنظر إليهن دائماً بإشفاق . لو أن الامر يتم اختياراً لفضلت أيضاً أن اكون امرأة ، فاكتمال السرور بإمكان الانتصار بالقوة على جميع القدرات التي منحتمك اياها القوانين التي شرعتموها بأنفسكم ! ولكن عندما نراكم عند أقدامنا تقولون وتفعلون الحماقات ، اليس في ذلك سعادة مسكرة أفضل من شعور بضعف ينتصر ؟ إذا عندما ننجح يجب أن نحافظ على الصمت خوفاً من أن نفقد سيادتنا ، وعنى النساء أن يصمتن أيضاً اعتزازاً فصمت العبد يرعب السيد .

هذه الثرثرة همست بصوت ساخر بمنتهى الرقة والحلاوة مع حركات رأس مغناج ، بحيث بدأ دارتز الذي يجهل كلياً هذا النوع من النساء وكأنه حجل بهره كلب الصيد .

قال أخيراً : أرجوك يا سيدتي اشرحي لي كيف أمكن لرجل، أن يسبب لك الالم ، وتأكدي انه في الحالة التي تكون فيها جميع النساء تافهات فستكونين أنت مميزة حتى ولو لم تنظقي الا بكلمات لا فائدة منها الا في كتاب للطبخ .

« انك تظهر صداقتك بسرعة » قالت بصوت رزين خفف من اندفاع دارتز وأكسبه القلق .

تغير موضوع المحادثة ، وطال الوقت ، وخشي رجل العبقرة المسكين ان يندم ان بدا فضولياً ، او ان يجرح هذا القلب ، وخيل اليه ان هذه المرأة قد تألمت بشكل كبير .

تألمت ! لقد قضت حياتها تتسلى ، كانت دون جوان أنثوياً حقيقياً مع فارق أنها لا تدعو للعشاء تمثالا من حجر ، بينما من المؤكد أنها تتصرف بعقل التمثال .

لا يمكن الاستمرار في هذه القصة دون التطرق بكلمة عن الامير دي كادينيان الذي اشتهر باسم الدوق دي موفرينيوز وإلا فإن ملح الاختلافات العجيبة اللدوقة يختفي ، ولا يفهم البعيدون عن الموضوع شيئاً من التمثيلية الباريسية الرهيبة التي ستلعبها على رجل .

كان الدوق دي موفرينيوز ابن الامير دي كادينيان رجلاً طويلاً ضامراً ، متقيداً بأدق أصول الأناقة ، متمتعاً بحسن الذوق ، ذا حديث جذاب ، وقد أصبح عميداً في الجيش بمئة من الله ، وغدا عسكرياً جيداً بالصدفة ، رغم انه شجاع كبولوني ، في كل مناسبة ، وبدون رويّة . وكان يحجب فراغ مخه تحت رطانة الصحبة الكبيرة ، وقد اظهر منذ عمر السادسة والثلاثين لا مبالاة كاملة بالجنس اللطيف نتيجة عجز اصابه معاقباً كمعلمه الملك شارل العاشر على شدة استهتارها في ايام الشباب ، فقد كان خلال ثمانية عشر عاماً معبود ضاحية سان جرمن ، وأمضى كجميع ابناء العائلات حياة طائشة يملؤها البحث عن المرات فقط .

كان أبوه المدمر بالثورة ، قد استعاد مقامه بعودة آل بوربون ، في حكومة القصر الملكي ، فحصل على معاشه وتقاعده ، لكن الامير الشيخ استهلك هذه الثروة المفتعلة بسرعة ، إذ بقي يتصرف وكأنه ، كما كان قبل الثورة ، ذلك السيد الكبير حتى عندما طبق قانون التعويض بذرّ المبالغ التي تلقاها على مظاهر الترف التي نشرها في أرجاء قصره الواسع،

وهو الملكية الوحيدة التي بقيت له ، والتي شغلت زوجة ابنه القسم الاعظم منه .

توفي الأمير دي كادينيان الأب قبل وقت قصير من ثورة تموز ١٨٣٠ عن عمر ناهز السابعة والثمانين ، بعد أن سبب افلاس امراته ، وبقي مدة طويلة في تنافر مع دوق نثارين ، الذي اتخذ ابنته زوجة أولى له ولم تصف بينهما الايام . كان للدوق دي موفرينيوز علاقة مع دوقة اوكل ، وفي العام ١٨١٤ وفي الفترة التي بلغ فيها السيد دي موفرينيوز السادسة والثلاثين ، رأت فيه دوقة اوكل رجلاً فقيراً لكنه نافذ الكلمة في البلاط ، فزوجته ابنتها التي تمتلك دخلاً يقدر بخمسين أو ستين ألف ليرة سنوياً ، وما سينالها بعدئذ من ميراث أمها وهكذا أصبحت الأنسة اوكل دوقة ، ركزت أمها على الارجح ، تعرف انها ستلقى أكبر حرية ، وبعد أن حظي بالسعادة غير المؤلمة في انجاب وريث ترك لامراته الحرية الكاملة في تصرفاتها وذهب يلهو من معسكر الى آخر يقضي الشتاء في باريس ، ويراكم الديون التي يسدها والده دائماً ، مجاهراً يتسلمح زوجي كامل ، منبئاً الدوقة مسبقاً وقبل ثمانية ايام عن موعد عودته الى باريس ؛ كان معبوداً في الفرقة التي يرأسها ومحبوها من ولي العهد ، فهو ممالق ماهر ، ومقامر بسيط ، دون اي تصنع : ولم تستطع الدوقة أن تقنعه أن يصاحب يوماً إحدى فتيات الأوبرا ، لياقة ومراعاة لها ، كما كانت تصرح بطرافة .

تولت الدوق بالوراثة منصب والده ، وعرف كيف يرضي ملكين ، لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، مما يدل على أنه يعرف كيف يستفيد من عدم اهليته ، لكن سلوكه وحياته ، وكل شيء لديه محتجب تحت طلاء براق من حسن المنطق ، ونبيل الاساليب ، وأناقاة في غاية الكمال . أخيراً كان الأحرار يحبونه .

بدا من المستحيل على الدوق أن يتابع مسيرة آل كادينيان الذي عرف عنهم ، وفقاً لقول الأمير العجوز ، أنهم يبذرون ثروات زوجاتهم ،

وذلك لأن الدوقة هي التي بذرت بنفسها ثروتها ، لكن هذه الخاصية أصبحت شائعة في المجتمع وفي ضاحية سان جرمن بحيث يسخر ممن يتكلم عن ذلك خلال السنوات الخمس الأخيرة من عودة الملكية ، وكأنه يذكر شيئاً مألوفاً كموت تورين أو هنري الرابع .

هكذا ما من امرأة كانت تتكلم عن هذا الدوق الفاتن دون أن تغمره بالمديح ، فهو كامل في معاملته لزوجته ، إذ يصعب أن يظهر رجل مثل طيبة موفرينيوز نحو الدوقة، فقد ترك لها حرية التصرف بثروتها وحاجها ودعمها في كل مناسبة ، وقد أنقذها ، سواء عن اعتزاز ، أو عن طيبة ، أو عن شهامة من ورطات عديدة كان يمكن لغيرها أن تتلف بها ، رغم حاشيتها ، ورغم اعتمادات دوقة أوكلس العجوز ، ودوق دي نافارين ، وحميتها وعمة لزوجها . إن الأمير دي كادينيان يعتبر حالياً صاحب الطبع الأكثر دماثة في الارستقراطية ، وربما كان الوفاء عند الحاجة أحد أجمل الانتصارات التي يمكن أن يحققها الممالقون على انفسهم . كانت دوقة أوكلس في الخامسة والأربعين من عمرها ، عندما زوجت ابنتها من الدوق دي موفرينيوز ، إذا فقد شهدت منذ مدة طويلة ، ودون غيرة ، بل وباهتمام نجاح عشيقها القديم ، وفي فترة زواج ابنتها من الدوق التزمت بسلوك نبيل جدا أنقذ لآخلاقية هذا الاتحاد ؛ غير أن رواد البلاط ، بخبثهم ، وجدوا مادة للسخرية مدعين أن هذا السلوك الطيب لا يكلف الدوقة شيئاً بالرغم من أنها أنصرفت منذ خمس سنوات الى الورع ولى توبة النساء اللواتي يجب عليهن العمل كثيراً لينلن الغفران .

بدأت الأميرة خلال بضعة أيام أكثر فأكثر تميزاً في معارفها الأدبية ، فقد نصدت بشجاعة فائقة الى قضايا عويصة بفضل قراءتها النهارية ، والليلية التي تابعتها بجرأة تستحق أكبر الثناء ؛ وقد دهش دارترز ، وكان عاجزاً عن أن يكتشف أن ديان أوكلس تردد في المساء ما قرأته في الصباح ، وكما يفعل عديد من الكتاب ، اعتبرها امرأة عميقة الثقافة . لكن هذه المحادثات أبعدت ديان عن هدفها ، وجريت أن تعود الى ميدان الاعترافات التي انسحب منها حبيبها بحذر ؛ لكن لم يكن من السهل

عليها أن تعيد رجلاً من هذا المعدن الى وضع جفل منه ؛ غير أن دارتز ، بعد شهر من حملات أدبية وخطابات افلاطونية جميلة ، تشجع وأصبح يأتي كل يوم في الساعة الثالثة لينسحب في الساعة السادسة ، ثم يظهر من جديد مساء في الساعة التاسعة ليقبى حتى منتصف الليل أو الواحدة صباحاً بانتظام عاشق فقد صبره ، وكانت الأميرة في المواعيد التي يحضر بها دارتز دائماً متهيئة في كامل هندامها ، إنما دون تكلف ، هذا الاخلاص المتبادل ، والعناية التي يحيطان نفسيهما بهما ، وكل شيء فيهما يعبر عن عواطف لا يجرؤان على الاعتراف بها ؛ لأن الأميرة خمنت بحق أن هذا الولد الكبير يخشى النقاش بقدر ما في نفسه من رغبة ؛ غير أن دارتز كان يضمن تصريحاته الثابتة الخرساء احتراماً يرضي الأميرة الى أبعد حد ؛ وكان الاثنان يشعران كل يوم بأنهما متحدان حتى ما من أمر مقرر أو حاسم يحول دون مسيرة افكارهما ، فكانما بين العاشقين من جهة ، مطالب قاطعة ، ومن جهة أخرى مقاومة جديدة أو متدلة .

كان دارتز ، ككل الرجال الأكثر شباباً مما تقتضي أعمارهم ، فريسة هذه الترددات المؤثرة الناتجة عن قوة الرغبات والخشية من عدم الإرضاء ، وهو وضع لا تفهمه المرأة عندما لا تشارك به ، لكن الأميرة وقد عملت غالباً على تكوينه أحست بملذاته ؛ وهكذا كانت ديان تنعم بهذه التصرفات الصيانية العذبة بمزيد من الروعة بقدر ما تعرف كيف يمكن أن توقفها ، فهي تشبه فنانا كبيراً يلذ له رسم عض خطوط غامضة في مسودة ، وهو واثق من أنه سينهي في ساعة الهام التحفة الفنية التي ما تزال عائمة في غموض الولادة . كم من مرة سرّها ، وهي تشاهد دارتز مستعداً لمزيد من الجراة ، ان توقفه بلامح رادعة ؟ كانت تطرد بالعواصف السرية لهذا القلب الفتى ؛ وتشرها ، وتهدئها بنظرة ، بأن تمد يدها ليقبلها ، أو ببعض الكلمات التافهة المقالة بصوت متأثر ناعم .

. هذا الترويض الموافق عليه ببرود ، إنما المدار باتقان ، كان يزيد باطراد من نقش صورتها في نفس هذا الكاتب الروحاني ، الذي كانت تسرّ بإعادته ولداً ساذجاً بسيطاً أشبه بالبله قربها ، لكن كان لها عودة

أيضا الى ذاتها ، وكان من المستحيل عليها عندئذ الا تعجب من هذا
الكبر المزوج بهذا القدر من البراءة . ولعبة المفناج الكبرى هذه جعلتها
هي أيضا تتعلق بعندها بشكل لا محسوس . أخيرا فقدت ديان صبرها
تجاه هذا الإبيكتيت(١) العاشق ، وعندما أيقنت أنها قد هيأتها لسرعة
التصديق الكاملة ، رأت أن من واجبها أن تطبق على عينيه أكثر العصائب
ثخانة .

في إحدى الأمسيات وجد دانييل الأميرة مفكرة ، وقد أسندت مرفقها
الى منضدة صغيرة ، ورأسها الأشقر الجميل غارق في ضوء مصباح ،
وكانت تمبث برسالة ترقصها على غطاء المنضدة ؛ وعندما رأى دارتز
جيدا هذه الورقة ، طوتها ووضعها في حزام ثوبها .
« ما بك ؟ إنك تبدين قلقة » . سألها دارتز .

– لقد تلقيت رسالة من السيد دي كادينيان ، وأيا كانت فداحة
أخطائه تجاهي ، فإني أفكر ، بعد أن قرأت رسالته ، بوجوده في المنفى ،
دون عائلة ، ودون ولده الذي يجب .

هذه الكلمات المنطوقة بصوت مليء بالروح ، كشفت عن حساسية
ملائكية ؛ وقد تأثر دارتز الى أبعد حد ، ففضول العاشق أصبح فضولا
نفسيا وأديبا إن صح القول ، أراد أن يعرف الى أي حد يصل كبر هذه
المرأة ، وأي الاهانات يجب أن تغفر لها ، وكفيع يمكن لهؤلاء النسوة في
المجتمع المتهمات بالطيش ، وقسوة القلب والانانية أن يكن ملائكة ؛
وبتذكره أنه قد صدّ عندما أراد أن يتعرف على هذا القلب السماوي ،
أحس بارتعاش في صوته ، وهو يأخذ يد ديان الجميلة الشفافة الرقيقة
ذات الأصابع المغزلية ، وقال لها :

(١) إبيكتيت : فيلسوف رواقيني من القرن الأول الميلادي كان عبدا لا بيفروديت وحرره
نيرون جمعت كلماته من قبل آرين .

« هل نحن الآن أصدقاء بحيث تذكرين لي ما يؤمك ؟ إن لآحزانك القديمة دخلاً في حلم يقظتك هذا » .

– « نعم » قالت وهي تصفر هذه الكلمة كأنها أرق نغم يصدر عن ناي تولو^(١) وراحت ثانية في حلم يقظتها واحتجبت عيناها .

بقي دانييل في انتظار مليء بالقلق ، وقد غمره المظهر الجليل لتلك اللحظة ، وجعله خياله كشاعر يرى ما يشبه السحب تنشق بهدوء كاشفة المعبد الذي سيرى فيه أمام قدمي الله الحمل الجريح .

– « وماذا بعد ؟ » قال بصوت عذب هادئ .

نظرت ديان الى ملتمس إفصاحها الحاني ، وخفضت عينيها بهدوء ، وهي تبسط جفنيها بحركة تكشف عن أنبل خفر . الوحش وحده يمكنه أن يتصور شيئاً من المكر في التموج الرقيق الذي رفعت به الأميرة اللعوب رأسها الصغير ، لتفرق من جديد نظرة في عيني هذا الرجل الكبير الملهفتين .

– « هل أتمكن ؟ هل يتوجب عليّ ؟ وبدرت منها حركة تردّد ، وهي تنظر الى دارتز بتعبير سام من حنان حالم . إن الرجال لا يؤمنون كثيراً بمثل هذه الأشياء ، فهم يعتقدون أنهم غير ملزمين على الكتمان .

– آه ! إن كنت تحترسين مني فلماذا انا هنا ؟ هتف دارتز .

– أجابت وهي تعطي لتنهدها رقة اعتراف لا إرادي : إيه ! يا صديقي ، هل تحسب المرأة حساباً لشيء عندما تتعلق بالحياة ؟ إن الأمر لا يتعلق برفضي (فماذا يمكن أن أرفض لك ؟) إنما بالفكرة

(١) تولو « جان لويس (١٧٨٦ - ١٨٦٥) أشهر عازف ناي في عصره . أول عازف في الأوبرا وأستاذ في الكونسرفتوار .

التي ستكونها عني إن تكلمت ، أسر لك بالوضع الغريب الذي أنا فيه بهذا العمر ؟ لكن ماذا ستقول عن امرأة تكتشف جراح الزواج السرية ، وتفضح أسرار امرأة أخرى ؟ إن تورين قد صان كلمته عن السارقين ، الا يجب عليّ تجاه جلادي أن أكون باستقامة تورين ؟

– هل وعدت أحداً بصيانة السر ؟ .

– « إن السيد دي كادينيان لم يعتقد بضرورة طلب ذلك . إنك تريد مني إذاً أكثر من روحي ؟ أيها الظالم ! أتريد إذاً أن أدفن فيك استقامتي ؟ » قالت وهي ترمي دارتز بنظرة أعطت فيها قيمة لاعترافها الكاذب تفوق قيمة كل شخصيتها .

– « إنك تجعلين مني رجلاً أقل من عادي إن كنت تخشين مني المبادرة إلى أي أذى » ردّ بمرارة لم يستطع إخفاءها .

– قالت وهي تأخذ يده وتنظر إليها ، وتأخذها بين يديها وتداعبها وهي تشدّ أصابعها إليها بحركة فائقة العذوبة : «عذراً يا صديقي ، إنني أعرف قيمتك ، لقد حدثتني عن حياتك ، وهي نبيلة ، وجميلة ، وسامية ، وجديرة باسمك ، وبالمقابل يجب أن أحدثك عن حياتي ؟ لكنني أخاف في هذه اللحظة أن أهبط في عينيك إن افشيت لك أسراراً لا تتعلق بي فقط . ثم قد لا تصدق أهوال هذا المجتمع ، وانت رجل العزلة والشعر . آه إنك لا تعلم أنك رأيت مآسيك ، وانت تتخيلها ، تنوف على تلك التي تجري في العائلات الأكثر وفاقاً ظاهرياً . إنك تجهل مدى بعض النكبات المذهبة .

– « إنني أعلم كل شيء » هتف .

– كلا ، إنك لا تعلم شيئاً ، هل يمكن لفتاة أن تسلمّ أمها ؟

بسماع هذه العبارة ، بدا دارتز كرجل تائه في ليل أسود في جبال الالب لاحظ مع خيوط الفجر الأولى أنه يقفز فوق هوة لا قرار لها . نظر الى الاميرة بشكل مخبول ، وقد شعر بقشعريرة في ظهره . ظنت ديان أن هذا الرجل العبقرى ذو ذكاء ضعيف لكنها رأت في عينيه بريقاً طمانها .

قالت بهيئة قانطة : « أخيراً لقد أصبحت بالنسبة لي وكأنك قاض ، فيمكنني أن أتكلم بمقتضى الحق الذي يجيز لكل كائن مفترى عليه أن يظهر براءته ، لقد كنت ، وما أزال (إن كان هناك من يتذكر معتزلة مسكينة أجبرها المجتمع على أن ترفض المجتمع) متهمة بكثير من الطيش ، وبأشياء سيئة عديدة ، فليسمح لي بأن أضع نفسي في القلب الذي وجدت فيه ملجأً بطريقة لا اطرد فيها منه ، لقد رأيت دائماً في التبرير طعنة قوية توجه للبراءة ، وهكذا كنت أزدري دائماً الكلام ؛ إذ لمن يمكن أن أوجه كلامي ؟ يجب ألا تسرّ هذه الأشياء القاسية إلا الى الله أو الى من يبدو لنا قريباً منه ، الى كاهن أو انسان كنفسنا . حسن ، إذا كانت أسرارنا ليست هنا ، قالت وهي تضع يدها على قلب دارتز - كما هي أيضاً هنا (وثنت تحت أصابعها أعلى زنارها العريض) فإنك لن تكون دارتز الكبير ، وأكون قد خدمت .

تبلت عينا دارتز بالدمع ، وافترست ديان هذه الدمعة بنظرة جانبية لم تترجع فيها لا حدقة عينها ولا جفنها ؛ كانت نظرة رشيقة وواضحة كحركة قطة تطارد فارة .

لأول مرة تجرا دارتز بعد ستين يوماً مليئة بالبروتوكول ، أن يتناول تلك اليد الدافئة المعطرة ، ورفعها الى شفثيه وطبع عليها قبلة انسحبت من المعصم حتى الأظافر بشهوة حسية ناعمة أحنت لها الاميرة رأسها وهي تتفاعل بخير عميم من الأدب . لقد فكرت ان العباقرة يحبون بشكل أكثر اتقاناً مما يحب المغرورون ، أو رجال المجتمع ، أو الدبلوماسيون ، أو حتى العسكريون الذين ليس لديهم شيء يفعلونه

إلا هذا . إنها خبيرة ، وتعلم أن الطبع المفرغ يضع اشارته حتى على لا شيء ؛ والمرأة المثقفة يمكن أن تقرأ مستقبلها بدلالة حركة بسيطة كما تمكن كوفيه أن يستخلص علماً كاملاً برؤية جزء من قائمة كائن ، فذكر انها تعود لحيوان بحجمه كذا ، وهو بقرنين أو دون قرون ، لاحم او عاشب ، برمائي ، الخ . . . عمره كذا ألف عام .

كانت متأكدة أنها ستجد عند دارتز كثيراً من الخيال في الحب بقدر ما يضع في أسلوب كتابته ، وقد رأت أن من الضروري أن تجعله يصل الى أقصى درجة من الهوى والإيمان ؛ فسحبت يدها بحركة ساحرة مليئة بالانفعالات ، وكأنها تقول : « أرجو التوقف ، إنك تؤدي بي الى الموت ! » وخفت حماسة كلامها وبقيت فترة وعيناها في عيني دارتز معبرة في آن واحد عن السعادة ، وعن زيادة الاحتشام ، والجزع ، والثقة ، والدنف ، وشهوة مبهمة ، وحياء عذراء . بدت وكأنها في العشرين من العمر فقط ! لكن لناخذ الاعتبار أنها قد أعدت لهذه الساعة كذبات تثير السخرية ، مع فن خارق في التبرج ، فبدت على أريكتها وكأنها زهرة توشك أن تتفتح مع أول قبلات الشمس ، ماكرة كانت او صادقة ، فقد أسكرت دانييل . إن كان من المسموح به المجازفة برأي فردي فلننترف بان من العذوبة أن يبقى الانسان منخدعاً هكذا لمدة طويلة ، ومن المؤكد أن تالما(١) ، على المسرح ، هو فوق طبيعته قوة . لكن اليست الأميرة دي كادينيان من أكبر ممثلات هذا العصر ؟ ، ولا ينقص هذه المرأة الا نظارة منتبهون، من المؤسف أن النساء في الفترات المضطربة بالعواصف السياسية يخفتين كما زنابق الماء ، ويحتجن ليزهرن ويتفتحن أمام نظراتنا المفتحة ، إلى سماء صافية ونسيم عليل دافئ .

(١) ١٧٦٢ - ١٨٢٦) ممثل فرنسي ، كان المفضل لدى نابوليون ، أبدع في التمثيلات التاريخية .

أزفت الساعة ، وقد أعدت ديان لآسر هذا الرجل الكبير انشودة
يتعذر تخلصه منها وهي تتجلى في رواية حضرت بمهارة سيستمع إليها
كما استمع أنصار الإيمان المسيحي الأوائل لرسالة قديس . قالت :

« لقد زوجتني أمي ، يا صديقي ، وهي ماتزال تعيش في أوكلسل،
وأنا في السابعة عشر ، أي في العام ١٨١٤ (أتري إنني الآن امرأة هرمة)
إلى السيد موفرينيوز ليس حُبَّائي ، وإنما حباً به ، بذلك وفّت ما عليها
تجاه الرجل الوحيد الذي أحبته ، وعن كل السعادة التي منحها لها .
أوه ! لا تستغرب مثل هذه التركيبات الرهيبة ، فهي تحدث غالباً ،
وكثير من النساء هن عاشقات أكثر منهن أمهات ، كما أن معظمهن أمهات
أفضل منهن نسوة جيدات . هاتان العاطفتان ، الحب والأمومة ،
اللتان نمتا وصارتا إلى ما هما عليه بفعل طبائعتنا ، تتصارعان غالباً
في قلب النساء ، ولا بد من أن تقهر إحداهن عندما لا تكونان متعادلتين في
الشدة ، وهذا ما يجعل من بعض النساء الاستثنائيات مفخرة جنسنا .
إن رجلاً بمثل عبقريتك يجب أن يفهم هذه الأشياء التي لا يدهش لها
إلا الحمقى ، لكن هذا لا يجانبها الحقيقة ، بل إن ذهبنا إلى أبعد من
ذلك ، تعتبر مبررة بفروق الطبائع ، والامزجة ، والتعلقات ، والمراكز ،
فأنا مثلاً ، في هذه الفترة ، وبعد عشرين سنة من التعاسات وخيبات
الأمم ، والافتراءات التي تحملتها ، وأيام الملل القاتلة ، والمسرات
المجهضة ، ألسنت مستعدة أن أجثو على قدمي رجل يجنني بإخلاص
وإلى الأبد ؟ والحال إلا يدينني المجتمع عند ذاك ؟ لكن ألا تبرر عشرون
سنة من الآلام لعشر سنوات متبقية للعيش لي وأنا محافظة على جمالي ،
لأن أنصرف خلالها لحب نقي طاهر ؟

إن هذا لن يحدث ، فأنا لست حمقاء إلى الحد الذي أنقص فيه
جدارتي أمام عين الله . إنني أحمل وزر النور وثقل الحر حتى نهاية يومي
وسأنال مكافأتي ..

« يا لها من ملاك ! » فكر دارتز .

« أخيراً أنا لم أحقد على دوقه دي أوكل لأنها أحبت السيد دي موفرينيوز ، أكثر من حبه لديان المسكينة التي أمامك ، فأمي لم ترني إلا قليلاً جداً ، حتى أنها نسيتني ، لكنها تصرفت بشكل سيئ نحوي ، كإمرأة تجاه امرأة ؛ وما هو سيئ بين امرأة وأخرى يصبح رهيباً بين أم وابنة . إن الأمهات اللواتي يمارسن حياة حياة الدوقة دي أوكل يحرصن على أن تكون بناتهن بعيدات عنهن ، وهكذا فانا لم أخاطب المجتمع إلا قبل زواجي بخمسة عشر يوماً ، ولك أن تحكم على سداجتي ؟ لم أكن أعرف شيئاً ، وكنت عاجزة عن أن اكتشف سر ذلك الزواج . كانت لي ثروة جميلة : غابات بدخل ستين ألف ليرة سنوياً ، نسيت الثورة أن تبيعها في نيفرني ، أو لم تتمكن من بيعها ، وهي تتعلق بقصر آنزي الجميل . كان السيد دي موفرينيوز مرهقاً بالديون ؛ وإذا كنت قد علمت فيما بعد ماذا تعني الديون ، فإنني كنت أجهل الحياة تماماً لأرتاب به ؛ والإدخارات الناتجة عن ثروتي استخدمت لإصلاح أوضاع زوجي . كان السيد دي موفرينيوز في الثامنة والثلاثين عندما تزوجته ، لكن هذه السنوات كانت كذلك التي تنقضي في الحملات العسكرية ، لذلك يجب أن تحسب مضاعفة . آه ! لقد كان في أكثر من السادسة والسبعين ؛ وكانت أُمي وهي في الأربعين من عمرها ما تزال ذات تطلعات ، وهكذا وجدت بين غيرتين .

أية حياة مرت عليّ خلال عشر سنوات ؟ . . . آه لو يدرك ما عاتته تلك المرأة الصغيرة المسكينة المشتبه بها ! وهي تحت مراقبة أم تفار من ابنتها ! يا الهي ! . . . أنتم يا من تبتكرون المآسي ، لن تبتكروا أبداً مثل هذه المأساة بسوادها وقسوتها ؛ فغالباً ، وفق القليل من معرفتي بالأدب ما تشكل المأساة تتابعاً من الأحداث ، والخطابات ، والحركات التي تتسارع لتنتهي إلى كارثة : أما ما أحدثك به فأشد الكوارث رهبة في حدّث ! إنها وابل يسقط عليك صباحاً ، ويعود للسقوط مساءً ، وسيسقط في اليوم التالي . إنني أشعر بقشعريرة في اللحظة التي

اكتلمك فيها ، والتي أسلط فيها الضوء على كهف دون منفذ ، بارد وقاتم
عشت به .

إذا وجب ان أقول لك كل شيء ، فإن ولادة طفلي المسكين كانت كل
حياتي ... ألم تدهش لشدة الشبه بينه وبينى ؟ الشعر ذاته ،
والعينان ، وتقاطيع الوجه ، والفم ، والابتسامة ، والذقن ، والاسنان ...
والحال ان ولادته كانت صدفة ، او نتيجة اتفاق بين امي وزوجي . لقد
بقيت مدة طويلة فتاة عذراء بعد زواجي ، شبه مهجورة في اليوم التالي ،
اماً دون ان اكون امرأة ؛ وكانت الدوقة تسر في إطالة مدة جهلي ،
وللوصول الى هذا الهدف تمتلك الام مزايا رهيبة تجاه ابنتها ؛ وانا فتاة
مسكينة ربيت في دير كوردة ثقية ، لا تعلم شيئا عن الزواج ، لكن بعد
وعيي المتأخر ، شعرت بسعادة قصوى ، فقد نعمت بوفاق وانسجام
عائلتنا ؛ أخيراً صرفت النظر كلياً عن التفكير بزواجي ، الذي لم يكن
يمعجني أبداً ، والذي لا يفعل شيئاً ليبدو محبوباً ، وانشغلت بغبطة
أمومتي الأولى : وكانت من الحيوية بحيث لم التفت لشيء غيرها ؛
وقد نفخ كثيراً في أذني حول ما يتوجب على الأم من احترام لذاتها ! مع
إن الفتاة تحب دائماً ان تلعب لعبة الأم ، وفي العمر الذي كنت فيه فقد
حل طفل محل اللعبة . كنت معتزة بأن لي هذه الزهرة الجميلة ، لان
جورج كان جميلاً ... بل آية في الجمال ! كيف تفكر بالعالم عندما نتم
بتغذية ملاك صغير والعناية به ! إنني أعبد الاطفال عندما يكونون صغاراً ،
بيضا وورديين . انا لم أكن أرى إلا ولدي ، وكنت أحياء مع ولدي ،
فلا اترك مربيته تلبسه ، او تعريه من ثيابه ، او تغير له ، فقد كانت في هذه
الاهتمامات المملة بالنسبة للأمهات المتعددي الاولاد ، كل السعادة لي ؛
ولكن بعد ثلاث او أربع سنوات وبما أنني لست حمقاء تملأ ، رغم كل
ما بذل لعصب عيني ، فإن النور قد انتهى إليهما . لو تراني في يقظتي ،
بعد أربع سنوات ، أي في العام ١٨١٩ ؟ إن مسرحية الأخوين الأعداء (١)

(١) الأخوان الأعداء او تبايد : أول تراجيديا لراسين .

تعتبر تراجيديا بماء الورد الى جانب ما كنا فيه ، الدوقة وأنا ، كام وابنتها ، فقد جابهتهما هي وزوجي بمظاهر دلغ عامة أصبحت حديث المجتمع ... والله يعلم كيف ! هل تعلم يا صديقي أن الرجال الذين اشتبه اني على علاقة معهم . كانوا بالنسبة لي بمثابة خنجر استخدمه لطمن العدو ؛ بانشغالي بانتقامي ، لم اشعر بالجراح التي سببتها لنفسي . فاعتبرت ، بعد أن كنت ساذجة كطفلة ، امرأة منحرفة ، بل أسوأ امرأة في الدنيا ، دون أن أعلم شيئاً عن ذلك . إن العالم احمق ، أعمى ، جاهل ، إنه لا يكشف إلا عن الأسرار التي تسليه ، والتي يوظفها لخبثه ، أما الأشياء الأكثر كبراً ، والأكثر نبلاً ، فإنه يضع يده على عينيه كي لا يراها . لكن بدا لي ، في ذلك الوقت ، أنني اكتسبت نظرات ومواقف براءة متمرده ، وحركات اعتزاز تعتبر ذخراً طيباً لكبار الرسامين . كان حرياً أن اسلط الأضواء على حفلات الرقص بعواصف غضبي وسيول ازدرائي . قصيدة خاسرة ! فنحن لا ننظم هذه القصائد المهيبة إلا عندما ينتابنا السخط ونحن في العشرين من العمر ! أما فيما بعد فلا نسخط أبداً ، لاننا نعبنا ، ولا ندهش أبداً للرزيلة لاننا اصبنا بالجبن والخوف ؛ وأنا اندفعت ، اوه ! اندفعت كثيراً ، كنت احمق شخصية في العالم : تحملت اثقال الجريمة دون أن يكون لي فوائدها . كنت أجد لذة في تعريض فسي للشبهة ! مكرت كالاطفال . ذهبت الى ايطالية مع فتي طائش ، تركته هناك عندما حدثني عن الحب ، ولكن عندما علمت أنه قد جازف في سبيلي (أجرى عملية تزوير من أجل الحصول على المال) هرعت لانقاذه ، لكن أمي وزوجي اللذين يعرفان سر هذه الأشياء شددوا القيد علي كأمراة مبذرة . اوه ! هذه المرة ذهبت الى الملك ؛ وقد تأثر لويس الثامن عشر ، رغم ما عرف عنه أنه رجل بدون قلب ، فأعطاني من خزينته مئة الف فرنك ، وهكذا انقذ المريكز دي اسكرونيون من الهوة التي رمى نفسه بها من أجلي ، هذا الشاب الذي قد تكون التقيت به في المجتمع انتهى الى اجراء زواج ثري جدا .

هذه المغامرة الناتجة عن خفتي دفعتني الى التفكير ، وقد لاحظت انني اول ضحية لانتقامي ، فالعالم مع أمي وزوجي وحمي وهم يبدون

وكانهم يحمون حماقتي ، اما امي التي تعرف ما انا فيه من انفة ، وكبر ، وطبع موروث من آل اوكل فقد ارتعبت من الاذى الذي تسببه إنعاملتي بابتذال ؛ وكانت آنثذ في الثانية والخمسين من عمرها فتركت باريس وذهبت لتعيش في اوكل ؛ وتابت عن اخطائها وهي تكفر عنها بتفان مبالغ فيه وود لا حدود له تجاهي . لكنها في العام ١٨٢٣ تركتني وحدي وجهاً لوجه ، مع السيد دي موفرينيوز ؛ آه يا صديقي ، انتم الرجال الآخرون لا يمكن ان تعرفوا كهولة رجل قضى شبابه في المغامرات ، واية طوية لذلك الرجل المتعود على ان تعبد نساء المجتمع ، فلا يجد الآن لا بخورا ولا مبخرة حوله ، مات فيه كل شيء ، وهو غيور من ذلك بالذات ! لقد اردت بعد ان غدا السيد دي موفرينيوز كله لي ، اردت ان اكون امرأة طيبة ، لكنني اصطدمت بكل خشونة الروح المكتئبة ، وبكل نزوات العجز ، وطيش البلاهة ، وكل ابتذال الادعاء ، برجل هو فصيذة الرثاء الاكثر مللاً في العالم ، فهو يعاملني كطفلة ، ويطيب له توجيه الإهانة الى عزة نفسي في كل مناسبة ، وإذلا لي تحت ضربات تجاربه ، مبرهنأ لي أنني أجهل كل شيء . إنه يحرجني في كل لحظة . أخيراً لقد فعل كل شيء ليجعلني اكرهه واعطاني الحق في خيانتة ؛ لكنني كنت تلك المغفلة المنقادة لقلبي ورغبتي في نتيجة طيبة خلال ثلاث أو أربع سنوات . هل تعلم الكلمة الشائنة التي جعلتني ارتكب حماقات اخرى ؟ هل تبشكر اكبر من هذه الفريات في العالم ؟ قيل :

– « لقد عادت الدوقة دي موفرينيوز الى زوجها » .

– عجباً ، هذا انحلال ، انه لنصر إحياء الموتى ، لم يكن أمامها أن تفعل غير ذلك « اجابت إحدى أفضل صديقاتي ، وقريبة لي ، تلك التي سعدت بلقائك لديها .

– السيدة دي اسبار ! هتف دانييل وقد بدت منه إشارة رعب .

— اوه ! لقد غفرت لها يا صديقي . فالكلمة روحانية الى حد بعيد ، وربما قلت انا بالذات سخريات أقسى من ذلك على نسوة بأئسات هن بمثل النقاء الذي كنت فيه .

قبل دارتز مجدداً يد تلك المرأة القديسة ، التي بعد ان قدمت له اماً قطعها إرباً ، جعلت من الأمير دي كادينيان الذي تعرفونه ، عطيلاً متعدد الحماقات ، ثم وضعت نفسها في حالة يرثى لها معددة أخطاءها لكي تظهر أمام عيني هذا الكاتب الساذج بهذه العذرية التي تجرب أغبي النساء ان تقدمها بأي ثمن لعشيقتها .

« انت تعلم يا صديقي انني دخلت الى المجتمع بألق ولكي احدث فيه تالقات ؛ وهنا تعرضت الى معارك جديدة ، إذ يجب ان اظفر باستقلالتي واحيد السيد دي موفرينيوز ، لذلك مارست حياة طائشة لأسباب أخرى ، لا تناسى همومي وانسى الحياة الحقيقية من خلال حياة خارقة ، وظهرت ببريق ، واقمت الحفلات ، وتصرفت كأمرية ، وغرقت في الديون . كنت في منزلي انسى نفسي في النوم بعد التعب ، ثم اتجدد جميلة فرحة مندفعة في اليوم التالي بطيش في المجتمع ، لكنني في هذا الصراع الحزين بين النزوة والحقيقة بددت ثروتي . وعندما حصلت ثورة ١٨٣٠ ، وفي الفترة التي صادفت في نهاية هذا الوجود الشبيه بالف ليلة وليلة الحب النقي الظاهر الذي كنت أرغب بمعرفته (ولاقل ذلك بصراحة) ؛ ولنعترف ! ليس طبيعياً من امرأة ، قهرت الاسباب العديدة والأحداث قلبها ، ان يستيقظ هذا القلب في العمر الذي احست فيه بأنها قد خدعت ، بينما ارى من حولي العديد من النساء اللواتي يسعدهن الحب ؟ آه ! لماذا كان ميشيل كرستيان كثير التوقير ؟ إن في ذلك سخرية مني أيضاً ماذا تريد ؟ بسقوطه فقدت كل شيء ، لم أكوّن اوهاما أبداً ؛ لقد عصرت كل شيء عدا ثمرة واحدة لم يكن لي تجاهها شهية أو أسنان . أخيراً لقد وجدت نفسي عازفة عن المجتمع عندما وجب ان أترك هذا المجتمع ، إن في ذلك شيئاً سماوياً كما في فقدان الحس الذي يهيئنا للموت (وقامت بحركة ملؤها المسحة الدينية) ؛

تابعت بعدها : كل شيء ساعدني على ذلك ؛ نكبات الملكية وبلاياها
 هيات لي أن أتوارى ، وابني الذي يعزيني عن أشياء كثيرة ، فالحب
 الأمومي يجعل كل العواصف الأخرى خداعاً ! إن المجتمع يستغرب بنعزالي ،
 لكنني أجد في ذلك هنائي . اوه ! لو تعلم كم هي سعيدة هنا المخلوقة
 التعسة التي تراها أمامك ! بتضحيتي بكل شيء من أجل ولدي أنسى
 المباهج التي أجهلها وسأجلها دائماً . من يمكن أن يصدق أن الحياة
 تتلخص بالنسبة للأميرة كادينيان ، بليلة زواج سيئة ، وكل ما يلحق
 بها من مجازقات ، وبتحدي فتاة صغيرة لعاطفتين رهيبتين ؟ لا أحد .
 إنني أخاف من كل شيء الآن ؛ إنني أرفض دون شك عاطفة حقيقية ، حباً
 ما حقيقياً وصافياً ، لقاء ذكرى كثير من الرياءات ، والتعاسات ؛ مثلي
 في ذلك مثل الأغنياء الذين تعرضوا لاحتيالات تتظاهر بالشقاء فرفضوا
 مد يد العون الى بؤس فاضل متقززين من عمل الخير . إن هذا رهيب ،
 اليس كذلك ؟ لكن تيقن أن ما أقوله لك هو حكاية كثير من النساء .

قيلت هذه الكلمات الأخيرة بلهجة دعابة وخفة تذكر بالمرأة الأنيقة
 الساخرة .

بدأ دارترز منذهلاً ، ففي نظره أن الأشخاص الذين ترسلهم المحاكم
 الى الأشغال الشاقة لأنهم قتلوا أو سرقوا ضمن ظروف مشددة أو زوروا
 التواقيع على سندهم قديسون صغار إذا قورنوا بأشخاص المجتمع ، بعد
 هذه المرثاة الشرسة التي قندت في مصنع الكذب وسقيت بمياه
 الستيكس^(١) الباريسي وقيلت بلهجة حقيقية لا تقلد .

تأمل الكاتب للحظة تلك المرأة المعبودة ، وقد غاصت في أريكتها
 وتدلت يداها الاثنتان من وراء المتكأين كأنهما قطرتا ندى على كم زهرة ،
 رازحة تحت هذا الكشف ، مرهقة وهي تبدو متحمسة بسر كل الام
 حياتها ؛ أخيراً ملاك كآبة .

(١) الستيكس : نهر في جهنم .

ثم تابعت وهي تنتصب بانتفاضة ، وترفع إحدى يديها ، وتلقي بريق من عينين فيهما عشرون سنة طهر مزعومة : ثم احكم ، احكم اي انطباع وجب ان يخلقه في حب صديقك ، لكن سخرية الحظ القاسية .. او ربما مشيئه الله .. إذ عندئذ ، اعترف ، ان رجلاً ، إنما رجل جدير بي سيجدني ضعيفة ، فلشدهما طال ظمئي للسعادة ! والحال أنه مات ، مات وهو ينفذ حياة من ؟ ... حياة السيد دي كادينيان ! ايدهشك ان تراني حاملة ... ؟ » .

كانت هذه هي الضربة الأخيرة ؛ ولم يعد دارتز المسكين يقوى على الصمود ، فجثا على ركبتيه ودس رأسه بين راحتي الأميرة وأخذ بالبكاء ، أخذ يذرف هذه الدموع الرقيقة التي تسفحها الملائكة ، إن بكت الملائكة .

امكن للسيدة دي كادينيان ورأس دانييل بين يديها ان ترسم على شفيتها ابتسامة الظفر الماكرة ، الابتسامة التي ترسمها القروذ وهم يقومون بدور ذكي إن ابتسمت القروذ ! « آه لقد ظفرت به » فكرت ، وفعلاً كانت قد ظفرت به جيداً .

– « لكن انت ... » قال وهو يرفع رأسه الجميل وينظر اليها بوله .

« عذراء وشهيدة » تابعت وهي تبتسم من ابتذال هذه الدعابة القديمة ، ولكن باعطائها نكهة فائنة بهذه الابتسامة المليئة بهجة قاسية فاذا رأيتني ضاحكة فلاني افكر بهذه الاميرة التي عرفت العالم ، بهذه الدوقة دي موفرينيوز التي منحت دي مارسسي ، ودي تراري الكريه قاطع الطرق السياسي ، وهذا الاحمق الصغير دي اسفرنيون ، وراستنيك ، ورومبره ، وسفراء ووزراء ، وجنرالات روس ، ماذا اعرف ؟ اوروبية كلها ! لقد نقد هذا الالبوم الذي اعدده بذريعة ان من اعجبوا بي هم اصدقائي . آه . انه شيء رهيب . فانا لا افهم كيف

اترك رجلاً يجثو امام قدمي : بينما كره الجميع وازدراؤهم يجب ان يكون مبدئي .

نهضت وذهبت الى النافذة بمشية مليئة ببواعث رائحة .

بقي دارتز على الاريغة التي عاد اليها ، دون ان يجرو على اللحاق بالاميرة ، لكنه تابعها بنظره وسمعها تشهق بالنحيب دون ان تنتحب ، من هي الاميرة التي تشرق بالدمع ، كانت ديان تجرب المستحيل لاقناعه بحساسيتها .

ظن دارتز ملاكه تذرف الدموع ، فهرع اليها واحاط خصرها وضمها إلى قلبه ؛ قالت بصوت ضعيف وهي تتمتم : « كلا اتركني ، انني اشك كثيراً في صلاحى لاي امر ، والتوفيق بيني وبين الحياة مهمة فوق طاقة اي رجل .

– ديان ! ساحبك حياً يعوضك عن كل حياتك الضائعة .

– كلا ، لا تكلمني هكذا ، انني خجلة في هذه اللحظة ومرعشة كائني ارتكبت افدح الخطايا .

هكذا رجعت كلياً الى براءة الفتيات غير انها ظهرت مهيبة ، كبيرة نبيلة ، كانها ملكة .

يستحيل وصف تأثير هذه الحيلة ، وقد بدت من المهارة بحيث انطلقت كحقيقة خالصة على روح بكر صريحة كروح دارتز . بقي الكاتب الكبير صامتاً كالأخرس إعجاباً ، مستسلماً امام هذه النافذة ، ينتظر كلمة ، بينما كانت الاميرة تنتظر قبلة ، لكنها غدت اشبه بقديسة بالنسبة له .

عادت الاميرة لتتخذ مكانها على الاريغة ، بعد ان همدت ، وقد احست بالبرودة تتسرب الى قدميها وفكرت في نفسها وهي تنظر الى

دانييل بجبهته العالية ورأسه المتسامي وكانها تقول : « لقد استغرق مدة طويلة » .

أما هذا الملاحظ العميق للقلب البشري فكان يتساءل : « أهي امرأة ؟ وكيف يجب التصرف معها ؟ » .

قضايا الوقت حتى الساعة اثانية صباحاً وهما يتحدثان بتفاهات تعرف النساء العبقريات كالأميرة كيف تجعلها محببة ، فقد ادعت ديان أنها مهدمة وكهلة وفات زمنها ، وراح دارتز يثبت لها ، ما هي مقتنعة به ، من أن لها أرق بشرة ، وانعمها ملمساً وفي زهوة ربيعها كزهرة ، وكانا يتطرقان الى كل مواطن الجمال ويفصلان فيها والأميرة تعلق : « اتمتد ذلك ؟ » - « انك لمجنون » .

- انه دافع الشهوة ! - خلال خمسة عشر يوماً ستراني على حقيقتي .

- أخيراً انني أسير الى الاربعين - هل يمكن أن تحب امرأة تسير الى الشيخوخة .

كان دارتز مندفعاً كطالب كلية مجد في بلاغته المنمقة بمدائح مبالغ فيها ، وكانت الأميرة تستمع الى هذا الكاتب الروحاني وهو ينطق بحماقات ملازم شاب عاشق وهي تضحك في قرارة نفسها ، وقد بدت في هيئة مستفرقة .

عندما أصبح دارتز في الشارع ، تساءل عما اذا كان قد وجب عليه التصرف بشكل أقل احتشاماً ، واستعاد في ذاكرته هذه الاعترافات الغريبة التي اعطينا بالطبع خلاصة جد مختصرة عنها ، اذ أنها تحتاج الى كتاب لتسجيلها في غزارتها المصولة وما رافقها من طرائق عرض . لكن حدة الذهن الاستعادية لهذا الرجل الطبيعي والعميق قد تعرضت للخذلان دون أن يتمكن من النوم : « هذا صحيح ، توجد مثل هذه المآسي

في العالم ، ان المجتمع يغطي مثل هذه الاحوال بأزهار أناقته وتطريز اغتياباته وبراعة أقاصيصه . اننا لا نخلق ابداً الا الواقعي . بالديان المسكينة ! لقد توقع ميشيل هذا اللفز ، وصرح ان تحت هذه الطبقة من الجليد تكمن براكين ، وقد كان بيانسون وراستينياك على حق « فعندما يتمكن رجل ان يضم كبر المثل الأعلى ومباهج الرغبة بهيامه بامرأة فاتنة التصرف، حادة الذكاء ، مرهفة الذوق فهذه سعادة تجل عن الوصف » وسبر في نفسه حبه فوجده لا نهائياً .

في اليوم التالي وحوالي الساعة الثانية ، حضرت السيدة دي اسبار يقودها فضول عارم ، فبعد ان انقضى اكثر من شهر لم تشاهد فيه الاميرة ولم تتلق منها اية كلمة ، ما من حديث اكثر اثاراً من حديث هاتين الحيتين الرقطاوين في نصف الساعة الاولى فديان دي اوكل كانت تحترس من التحدث عن دارتز كاحتراسها من ارتداء ثوب اصفر ، والمركيزة تدور حول هذا الموضوع كبدوي حول قافلة غنية . كانت ديان تلهو والمركيزة تتحرق غيظاً ، وانتظرت ديان فهي تريد استخدام صديقتها لتجمل منها كلب صيد ، وبين هاتين المرأتين الشهيرتين في المجتمع الحالي ، توجد واحدة اقوى من الاخرى ، وكانت الاميرة تهيمن بذكائها على المركيزة ، والمركيزة تعترف لها ضمناً بهذا التفوق ، وربما كان هنا سر صداقتهما ، فالكثر ضعفاً تبقى متربصة في ودها الكاذب ترقب الفرصة المنتظرة طويلاً من قبل الضعفاء ليقفروا على عنق الاقوياء ويطبعموا عليه اثر عضة فرحة ، كانت الامور واضحة امام ديان ، والمجتمع بكامله مخدوع بملاطفات هاتين الصديقتين .

في اللحظة التي رأت فيها الاميرة تسأولا على شفتي صديقتها قالت لها :

« في الواقع يا عزيزتي ، انني مدينة لك بسعادة كاملة ، وواسعة ولا نهائية وسماوية ؟ » .

« عمّ تريدن أن تعبري ؟ » ،

- هل تتذكرين ما كنا نتداول به منذ ثلاثة أشهر ، في هذه الحديقة الصغيرة ، على هذا المقعد ، تحت الشمس ، في ظل ياسمينة . آه ! إن العباقرة وحدهم يعرفون كيف يحبون . إنني اُطبّق عن طيبة خاطر على أئيري الكبير دانييل دارتز كلمة دوق إلبا لكاترين دي مديسي : « إن رأس سمكة سلمون تعادل جميع الضفادع » .

قالت السيدة دي اسبار ، لايدةشني أبداً عدم رؤيتي لك .

- قالت الأميرة وهي تتناول يد المركيزة : عديني ، إن رأيتك ، إلا تحدّثه بكلمة عني ، يا ملاكي ، فأنا سعيدة ، أوه ! سعيدة بما يفوق كل تعبير ، وانت تعلمين كم تذهب كلمة او دعاية بعيدا في المجتمع . إن كلمة تقتل ، إذ ما أكثر البراعة في وضع السم في الكلمة ! لو تعلمين كم وددت منذ ثمانية أيام أن تحظي بهوى مماثل . أخيرا إنه ناعم ، وإنه لنصر جميل بالنسبة لنا معشر النساء أن ننهي حياتنا النسوية بالرقاد في جو حب ملتهب تقّي ، وفيّ ، كامل وتام ، وخاصة إن كنا قد سعينا إليه خلال مدة طويلة .

- لماذا تطلبين مني أن أكون وافية مع احسن صديقة لي ؟ اتظنين انني قادرة على أن احتال عليك حيلة خبيثة .

- عندما تمتلك امرأة مثل هذا الكنز ، فان الخشية من فقدته هي شعور طبيعي توحى به خواطر الخوف ، إنني حمقاء ، أعدريني يا عزيزتي .

خرجت المركيزة بعد فترة من الوقت ، وقالت الأميرة في نفسها وهي تشاهدها تذهب : « كم ستنظم أموري ، لانها قادرة ان تقول كل شيء عني ، ولكن لأوقتر عليها تعب انتزاع دانييل من هنا ، فساعمل على إرساله لها .

بعد برهة من ذلك ، وفي الساعة الثالثة حضر دارتز ، وفي وسط حديث ممتع ، قطعت عليه الاميرة فجأة الكلام ، ووضعت يدها الجميلة على ذراعه وقالت « عفواً يا صديقي ، لكنني نسيت هذا الشيء الذي يبدو لي من الترهات رغم أهميته الكبرى . إنك لم تزر السيدة دي أسبار منذ اليوم - الذي أحمد الله ألف مرة عليه - للقائي فاذهب إليها ، ليس من أجلك ، ولا مراعاة للياقة ، وإنما من اجلي ؛ إذ ربما خلقت لي منها عدوة ، اذا عرفت مصادفة أنك ، منذ العشاء لديها ، لم تفارق منزلي إن صح التعبير . كما أنني يا صديقي لا أحب ان اراك تهجر علاقتك بالمجتمع ، ولا ان تنسى مشاغلك ومؤلفاتك ، إذ سيفترى عليّ بغرابة بعدها ، الا يقولون اني اقيدك بسلسلة ؟ وانني الهيك . إنني اخشى المقارنات ، وأريد أن اجعل الناس يتحدثون عني ايضا ، فانا حريصة على ان احتفظ بانتصاري ، لانني أعلم انه الأخير . من يمكنه أن يخمن أنك صديقي الوحيد ؟ إذا كنت تحبني بقدر ما تقول فادفع الناس الى الاعتقاد باننا بشكل بسيط ، مجرد أخ وأخت واستمر في ذلك » .

كان دارتز دائماً متأثراً بهذه الرقة الفائقة التي تسوّي فيها تلك المرأة الفاتنة أطراف ثوبها لتحافظ على مظهر أناقتها ، وقد كان في هذا الحديث من الرقة والرهافة ما جعل الدمع يتفرق في عينيه ؛ فالأميرد بعيدة عن كل الشروط الخسيسة والشائعة لدى النساء اللواتي يتخاصمن ويتماكن متواجهات على الدواوين ، إنها تظهر كبراً خارقاً ، وهي ليست بحاجة للحديث عنه . هذا الاتحاد قد تم بينهما بنبل ، وهو ليس وليد البارحة او غدا او اليوم ، إنما هو عندما أراداه كلاهما دون تلك الأشرطة غير المنتهية التي تسميها النساء العاديات تضحية ، لأنهن يعرفن دون شك كل ما يجب أن يخسرنه ، بينما هذا الاحتفاء نصر للنساء الواثقات من ربحهن .

كان كل شيء في هذه العبارة مبهماً كوعد ، خلواً كالرجاء مع انه اكيد كحق . لنعترف ! هذا النوع من الكبر لا يوجد إلا لدى هؤلاء الماكرات

المتفوقات الشهيرات ، فهن يقين سيدات في المواقع التي تصبح فيها النساء الاخريات خاضعات ، وقد أمكن لدارتز أن يحدد الفرق الموجود بين هؤلاء النسوة والأخريات .

إن الاميرة تبدو دائما مقدرّة وجميلة ، وربما كان سر هذا النبل في الفن الذي تعرف فيه السيدات العظيمات كيف تتعري من غلالاتهن . إذ يظهرن في ذلك الوضع وكأنهن تماثيل قديمة ، فان احتفظن بخرقة اعتبرن ذلك عهراً . أما المرأة العادية فتجرب دائما أن تتدثر .

أطاع دارتز ، وهو مكبل بمظاهر الحنان ، ومقيد بأجلّ الفضائل ، وذهب الى السيدة دي إسبار التي بسطت من أجله كل مظاهر غنجها الجذاب ، لكنها حرصت الا تتفوه بكلمة عن الاميرة ، إنما رجته فقط ان يحضر للعشاء لديها في يوم قريب .

وأى دارتز في ذلك اليوم رفقاء عديدين ، فقد دعت المركيزة راستنيك ، وبلونده ، والمركيز آجودا - بنتو ، ومكسيم دي تراي ، والمركيز دي اسفرينيون ، والاخوان فاندنس ، ودو تيه ، وواحد أغني أصحاب المصارف في باريس وهو البارون دي نوسنجن ، وناتان ، واللادي دودلي ، واثنين من ملحقي السفارة الاكثر مكرماً ، والفارس دي اسبار ، أحد أعمق شخصيات ذلك الصالون وهو من يتصف بنصف دهاء امرأة اخيه .

قال مكسيم دي تراي لدارتز وهو يضحك : « اترى غالباً الاميرة دي كادينيان ؟ » اجاب دارتز على هذا السؤال بإحناء جافة من رأسه .

كان مكسيم دي تراي قاتلاً مأجوراً من صنف رهيب ، دون ذمة أو ايمان ، قادراً على كل شيء ، يدمر النساء اللواتي يتعلقن به ، يجعلهن يرهنّ حليهن ؛ لكنه يغطي هذا السلوك بطلاء برّاق وأسلوب تصرف جذاب وبمزاج شيطاني ، كان يوحى للجميع خشية وكرها متساويين ، ولكن ما من أحد يجرؤ على أن يظهر له إلا العواطف اللبقة ، لذلك تعذر عليه أن يلاحظ شيئاً عن وضعه فقد إئتلف مع الرياء العام ، وكان الفضل

للكونت دي مارسي في الدجة الاخيرة من الرقعة التي امكنه الوصول إليها ، فقد رأى ، وهو الذي عرف في مكسيم بدأ طائلة ، انه قادر على أن يملأ بعض المهام السرية والدبلوماسية التي يكلفه بها والتي ينفذها بشكل رائع ؛ وكان دارتز منذ بعض الوقت قد تعاطى القضايا السياسية بحيث يعرف تعلماً الشخصية ، وهو الوحيد على الأرجح ذو الخلق السامي الذي يمكنه أن يصرح بصوت عال عما يفكر به الناس في السر

– قال البارون دي نوسنجن بلهجته الالزاسية : لأجلها إذن دون شك أهمل جلسات المجلس النيابي .

– آه ! إن الأميرة هي احدى أخطر النساء اللواتي يمكن لرجل أن يضع قدمه في منزلهن ، فهي سبب فضيحة زواجي ، قال الماركيز دي اسفرينيون بهدوء .

– « خذرة ؟ لا تقل هكذا عن أحسن صديقة لي ، إنني لم أعرف ولم أر من الأميرة إلا ما يعبر عن العواطف الأكثر رفعة » . قالت السيدة دي اسبار .

– دعني الماركيز يقول ما يطو له ، هتف راستينياك ، عندما يطرح أحد الخيول الجميلة فارسه أرضاً ، فان الفارس يجد فيه كل العيوب ويبيعه .

نظر الماركيز دي اسفرينيون ، الى دانييل دارتز وقد لسمته هذه الكلمة وقال له : « أمل الا يكون السيد مع الأميرة في درجة تمنعنا من الحديث عنها » .

. لزم دارتز السكوت ، وأجاب دسفرينيون ، الذي لا تنقصه روح الفكاهة ، على تعنيق راستينياك ، بأن اعطى صورة تبريرية عن الأميرة جعلت المائدة كلها في بهجة ساخرة ، ولما كان سبب هذه السخرية غامضاً

الى حد بعيد بالنسبة لدارترز فإنه مال على اذن السيدة دي مونكورنه ،
جارته على المائدة وسالها عن سبب هذه الدعايات .

« لكن باستثنائك أنت ، وما تشهد به من حكم طيب على الأميرة ،
فان جميع المدعويين هنا ، على ما يقال ، كانوا أصحاب حظوة لديها » .
« يمكنني ان اؤكد ان هذا الادعاء كاذب » . اجاب دانييل .

– مع ذلك هو ذا السيد دي اسفرينيون ، نبيل من منطقة پرش ،
افلس كلياً من أجلها منذ اثنتي عشر سنة ، وكاد أن يصل الى منصة
الإعدام .

– إنني مطلع على الموضوع ، وقد ذهبت السيدة دي كادينيان
الى محكمة الجنايات لانقاذ السيد دي اسفرينيون ، وإليك كيف يكافئها
الآن . نظرت السيدة دي مونكورنه الى دارترز بدهشة وفضول شبه
أحمقين ثم وجهت ناظريها الى السيدة دي اسبار وهي تغمز نحوه بعينها
كانها تريد ان تقول : « إنه مسبي العقل » .

خلال تلك المحادثة القصيرة دافعت السيدة دي اسبار عن السيدة
دي كادينيان وكانت في حمايتها لها أشبه بواقية تجذب الصواعق إليها .
ولما عاد دارترز للمشاركة في الحديث العام سمع مكسيم دي تراي يطلق
هذه العبارة : « إن انحلال الأخلاق لدى ديان ليس نتيجة إنما هو سبب ،
وربما تعود طبيعتها العذبة الى هذا السبب ، فهي لا تبحث ، ولا تبتكر
شيئاً ، وإنما تقدم لك الأبحاث الأكثر إرهافاً وكأنها وحي حب" ملؤه
البراءة ، ويستحيل عليك الا تصدقها .

هذه العبارة التي يبدو انها قد أعدت لرجل على مستوى دارترز
كانت من القوة وكأنها خاتمة وخلاصة ؛ وترك الحديث عن الأميرة بعد
أن بدا وكأن ضربة قاضية قد وجهت إليها ، وتطلع دارترز الى دي تراي
ودي اسفرينيون بنظرة ساخرة وقال :

« إن خطأ هذه المرأة الفادح أنها تقتدي في تصرفاتها بالرجال ، فتبدد مثلهم الاملاك الخاصة بالزوجة ، وترسل عشاقها الى المرابين ، وتبذر المهور ، وتنفق اموال اليتامى ، وتهدم القصور العريقة ، وتوحي وربما ترتكب أيضاً جرائم ، ولكن ... »

لم يسمع سابقاً الشخصان المعنيان بكلام دارتز كلاماً يمثل هذه القوة من قبل ، وعند كلمة « لكن ... » بدت المائدة كلها متنبهة ، وكل واحد أبقي شوكته مشرعة في الهواء بينما عيناه تتناوبان النظر الى الكاتب الجريء والى المتجنين على الأميرة ، والجميع ينتظر الخاتمة بصمت رهيب .

تابع دارتز بخفة ساخرة : « لكنّ لسيدة الأميرة ذي كادينيان تفوقاً على الرجال : فعندما يتعرض أحدهم للخطر من أجلها ، تنقذه ، ولا تغتاب إنساناً . لماذا لا يوجد بين البشر امرأة تتسلى بالرجال كوجود رجال يتسلثون بالنساء ؟ لماذا لا يأخذ الجنس الجميل بين وقت وآخر بثأره ؟ »

« إن العبقرية أشد قوة من الفكر » قال بلونده لنتان :

هذا السيل من السخریات الهجائية كانت كثيران بطارية مدافع قابلت طلقات بنادق ، وهرع الى تغيير موضوع المحادثة ، ولم يبد على الكونت دي تراسي او على المركيز دي اسفرينيون انهما مستعدان لمخاصمة دارتز ؛ وعندما قدمت القهوة جاء بلونده ونتاجان للاقاة الكاتب بتعجل لم يجروا اي شخص آخر على تقليده مادام من الصعب التوفيق بين الإعجاب الذي أوحى به تصرف دارتز ، والخوف من معاداة شخصين قويين .

قال بلونده : لا تعود الى اليوم معرفتنا بأن في طبعك من الكبر مايعادل موهبتك وقد تصرفت هنا ليس كرجل وإنما كإله : لم يتوقع الساخرون أن تندفع ، لا بقلبك ولا بخبالك وتأخذ جانب الدفاع من امرأة

تحبها ، ترصدوه لك ، كان من شأنه ان يتيح الظفر لهذا العالم الذي تنهشه الفيرة ضد ذبوع الصيت الادبي . . . آه اسمح لي بالقول إن هذا منتهى التسامي في السياسة الخاصة .

– « آه إنك رجل دولة ، فالمهارة في التغلب على صعوبة الانتقام لامرأة دون الدفاع عنها » قال ناتان .

– أجب دارتز بيروود : إن الأميرة هي إحدى بطلات الحزب الملكي ، ليس من واجب كل رجل صاحب قلب أن يحميها رغم كل شيء . إن ما فعلته من أجل أسياها يبرر أي تصرف أهوج في الحياة .

قال ناتان لبلونده : « لعبته على الحدّ » .

– « حتماً ، وكان الأميرة تحتاج إلى كل هذا العناء » أجب راسننيك الذي انضمهم إليهم .

ذهب دارتز إلى الأميرة ، وقد كانت تنتظره وهي فريسة أشد أنواع القلق ، إذ يمكن أن تكون نتيجة هذه التجربة التي شجعتها ديان مشؤومة ، ولأول مرة في حياتها كانت هذه المرأة تتألم من صميم قلبها ، وتنضح عرقاً وهي في ثوبها ، فهي لا تعلم ماذا سيكون موقفها في الحالة التي يقتنع فيها دارتز بكلام الناس وهم صادقون ، بدلا من الاقتناع بكلامها وهي كاذبة إذ لم يسبق لها أن كان في متناولها طبع بهذه الطيبة ، ورجل يمثل هذا الكمال ، وروح يمثل هذا الصفاء وضمير يمثل هذا النقاء ، وإذا كانت قد دبرت مثل هذه الأكاذيب القاسية فإنها كانت مدفوعة بالرغبة في معرفة الحب الحقيقي ؛ وهي تشعر بهذا الحب يتفتح في قلبها ، إنها تحب دارتز ، وقد اضطرت لخداعه ، لأنها أرادت أن تبقى بالنسبة له الممثلة العظيمة التي لعبت أمهر دور في نظره .

عندما سمعت وقع خطوات دانييل في قاعة الطعام ، أحست بانفعال شديد ورعدة في الصميم . هذه الرعدة لم تنتابها أبداً خلال

أكثر الفترات مغامرة لامرأة من مستواها علمتها عند ذاك أنها تقامر بسعادتها ورنت عيناها عبر الفضاء فعائق نظرها دارتز بقوامه الكامل ، رات عبر عضلات جسمه ، وقرات في أعماق روحه : أن الشك ، وجناحه أشبه بجناح الخفاش ، لم يتمكن حتى أن يلامس نفسه . كان عند ذلك لتلك الحركة الرهيبة من الجزع ارتكاسها وكادت الغبطة تخنق ديان السعيدة ، لكن ما من كائن وجدت فيه القوة ليتحمل البؤس إلا وفيه مثلها ليصمد أمام طغيان السعادة .

هتفت وهي تنهض وتفتح له ذراعها : « دانييل ، لقد افترى علي وانتقمت لي » من خلال الدهشة الناتجة عن هذه العبارة وجذورها الخفية ترك دانييل رأسه يستلقي بين يدي الأميرة الجميلتين التي قبلته بقداسة في جبهته « كيف عرفت ذلك » .

— أوه ، أيها المشهور الأحمق ! ألا ترى أنني أحبك بجنون ؟

منذ ذلك اليوم لم يعد اطرح موضوع الأميرة دي كادينيان ولا دارتز ، فقد ورثت الابنة عن أمها بعض الثروة ، وهي تقضي كل أشهر الصيف في إحدى فيلات جنيف في سويسرة مع الكاتب الكبير ، ولا تعود الى باريس إلا لقضاء بعض أشهر الشتاء . أما دارتز فلا يظهر إلا خلال دورات المجلس التشريعي . أخيراً فإن نتاجه المنشور أصبح نادراً جداً .

هل هذه هي الخاتمة ؟ نعم بالنسبة لأصحاب الذكاء ، وكلا بالنسبة لمن يريدون معرفة كل شيء .

كتبت في جاردي ، حزيران ١٨٣٩

دراسة حول القصة والمؤلف

اعداد : آن ماري ميننجه

إن بلزك « لايفترع شيئاً » وهنا أقل ما يكون . وقد بينا (١) أن الحياة الحقيقية « لاميرة باريسية » – وهو العنوان الأول لهذه القصة – قد أملت عليه حكاية ديان دي كادينيان . –

كتب اندره موروا (٢) في المناسبة ذاتها : « إن الطبيعة صنعت عملها الفني ، وإشراقه العبقريّة قد اكتشفت التحفة » ولفهم التحفة جيداً ، يجب إذا التعرف على الأصل الفني أي على النموذج الحقيقي ، وفي البدء استبعاد بعض النماذج الكاذبة من ذوات الحياة القاسية .

استمد أحد هذه النماذج من إبتكار خالص بسيط وهو « دوقه دي اسكلينيك الجميلة من عائلة تاليران – بريغور المثلة من قبل السيد بلزك تحت اسم الدوقه دي موفرينوز ، أميرة كادينيان » . إن لامبينه خالق هذا التثبيت الجازم يلائم له عدة أسباب موجبة : « فأمرته تتمهر لمنفذي الأحكام من أجل وقف تنفيذها ، وهي تكره يوم السبت لأنه اليوم الذي تفسل فيه قدميها » لكن لامبينه المتعاطف ربما انطلق من إشاعة معينة : أن لم تكن « الأميرة الباريسية » الحقيقية هي تاليران – بريغور ، فإنها حماة تاليران – بريغور .

(١) آن ماري ميننجه : السنة البلازكية ١٩٦٢ – ص : ٢٨٢ - ٢٢٠

(٢) اندره موروا : برومته أو حياة بلزك – ص : ٤٥٠

حلة أخرى كاذبة هي الأميرة دي ليفن ، فمن علاقتها الحميمة مع غيزو استنتج أرنست دوره جازماً « أنها قد أوجت بقصة بلزاك (١) مستنداً الى دليل غريب وقليل الامثلة » إن ماضي السيدة دي ليفن وهي بطلته قد حرف إرادياً ، ودون أن يقدم أي تفسير لاختياره الشاذ من بين العديد من العلاقات الباريسية الشهيرة ، يشر إلى أقل النماذج الممكنة شهاً بسبب شخصية دوروتي دي ليفن، روسية متقدمة في السن أرملة، سيدة مجتمع مهتمة في أن تلعب دوراً في السياسة الأوروبية (حيث غيزو) لمصلحة البوليس القيصري وأخوها أحد قادته ، وأخيراً امرأة كامدة القلب والجسم ، وهي وفقاً لرموزا « فرس رهوانة كبيرة ، نحيلة ، بارزة التقاطيع ، جافة ، أنفها المستدقّ أحمر كعينيها الصفرتين والمريضتين (٢) » . إن هذا يستلزم من بلزاك أن يشوه إرادياً ، عدا الماضي ، شخصية هذه الرهوانة العالمية ليحولها إلى ديان دي كاديبيان ، العاشقة الحمقاء ، والأميرة الباريسية الشقراء الناعمة .

أما رؤية المركيزة دي كاستري نموذجاً جزئياً لديان ففيه اساءة ظن ، في آن واحد لبلزاك وديان ، فطبيعة بلزاك المرححة يجب الا تخدع : لقد تأمل عن بعد نموذج بطلته لكي لا يكون لهذه الوردة اشواك تؤثر به ، وديان هي النقيض التام جسدياً وأخلاقياً للمركيزة دي كاستري ، صهباء ، شديدة النحول ، مغناج عاجزة ، بعيدة كل البعد عن الشقرة الحيوية والاستدارات اللدنة ، وعاجزة عن هذه القابلية ، وهذا العنفوان والاقبال على الحياة وحب « المسرات الأرضية » التي تبرهن عليها ديان كل لحظة . في هذا الصدد إذا وجب قطعاً تحديده نموذج جزئي قريب الى بلزاك ، فإن السيدة غيدوبوني - فيسكونتي تشكل إمكانية أكثر قبولا .

(١) « حياة سفرة » - ص ٣٧٦ .

(٢) رموزا (الكونتيسة كلير اليزابيت) « ١٧٨٠ - ١٨٢١ » كانت هي وأماها مقربة من جوزفين زوجة نابوليون الأولى ، وكانت مقربة من نابوليون قبل طلاقه لجوزفين وتمكنت أن تسجل كثيراً من الأحداث التاريخية في مذكراتها ورسائلها التي نشرها حفيدها في الأعوام (١٨٧٩ - ١٨٨١) (ملاحظة الترجمة) .

ومن جهة أخرى فإن المركيزة دي كاستري بقيت تنعم بالثراء وتسكن ضاحية سان جرمن ، بينما ديان قد تدمرت وعاشت في شقة صغيرة في قلب ضاحية سان أونوره الحي السياسي والحديث. أخيراً فالمركيزة وهي طعم انائي بارد سببت العذاب لبلزاك ، بينما دارتز لم يعان في أية لحظة العذاب ؛ وإذا كانت ديان تمكر فلتجذب وترضي الحب وليس لدفعه ؛ والسعادة التي تمنحها أخيراً هي الوهم القديم لبلزاك : حب ارسقراطية يتوج نجاح الكاتب ورجل السياسة .

هنا الوهم حققه ثنائي في الفترة ذاتها التي كان بلزاك يكتب فيها قصته : الكونت مولى^(١) الذي سيطر على الحياة السياسية خلال ثلاث سنوات كرئيس مجلس وزراء ، أما تلك التي منحت دارتز ، الرجل المرموق ، السعادة ، فقد كانت هي أيضاً معروفة جيداً : إنها كورديليا دي كاستلان .

امراة لا مثيل لشقرتها ، غريبة الأطوار ومرهفة العقل ، وقد كانت إحدى ملكات باريس حتى إفلاسها في نهاية عهد عودة الملكية ، وعزمت عند ذلك على أن تعيش طي النسيان بعد أن غدت فضائحا حديث الناس؛ ثم عادت الى باريس بعد عدة سنوات واستقرت في شقة صغيرة على بعد خطوات من مقرها القديم المترف في ضاحية سان أونوره ، وفي عزلتها تلك ندرت استقبالاتها واقتصرت على بعض النخبة من رجال الفكر وصديقة واحدة : هي الدوقة دي دينو .

كان المجتمع يعرف ذلك ، وقد عرفه بالقياس ، قارئ أسرار الأميرة دي كادينيان : فديان قد اعتزلت المجتمع لكنها كانت تستقبل في وسطها الحميم بعض كبار الرجال الذين عرفت كيف تميزهم وتحفظ بهم ، ولم يكن لها إلا صديقة واحدة هي المركيزة دي اسبار . أما كيف

(١) الكونت مولى (لويس ماتيوي) : رجل دولة فرنسي ولد في باريس (١٧٨١ - ١٨٥٥) ، تولى رئاسة الوزارة في عهد لويس فيليب من ١٨٢٦ إلى ١٨٢٩ . (ملاحظة المترجم) .

تمكنت كورديليا من « تحييد » زوجها ، وتزويج ابنها ، والظفر بمولي عاشقها الآخر ، فهذه هي « أسرار » حياتها ، ومصدر هذا العمل الفني الذي فهمه بلزاك ، وأملى عليه قصته ، بل وأملها وحده .

من ناحية الإبداع الروائي . فإن رأي الروائي هو بصورة خاصة الرأي الكفاء : والحال أن أندره موروا قد كتب : « ان الطبيعة تبدي عناصر يستغلها الفنان ، ومع ذلك يحدث أن الحياة ، بمصادفات عجيبة تقدم للكاتب شخصيات ؛ بوجودها الواقعي ، أو بعض تعديلات تكاد لا تدرك يمكن أن تدخل مباشرة في رواية » وهكذا يستخلص الكاتب أن كورديليا دي كاستلان قد أصبحت « بدقة » ديان دي كادينيان .

« بدقة » سيكون الإثبات طويلا ، وقد سبق أن أجريناه ؛ ويكفي أن نذكر المعطيات الرئيسية التي اعتبرها بلزاك متراكمة بالضرورة؛ فمن البداية حتى الخاتمة نجد من ديان أنى كورديليا : الولادة ذاتها في العام ١٧٩٦ ، الزواج ذاته في السابعة عشر من العمر وتطابق شروط مهر ، مثيرة الدهشة العامة ذاتها لرؤية الجمال الأشقر الساحر لفتاة يافعة غنية جداً تزف الى رجل مستهلك، غارق في الديون وفاقد الاعتبار؛ ومن النبلاء العريقين . قال كادينيان من الملاكين كأل كاستلان لكن بسمعة سيئة : فهم تقليدياً ، يدمرون ثروات نساءهم ؛ « واثروة كورديليا استهلكت على يد حميها وزوجها » ووفقاً لكلامها بالذات ومنذ نهاية عهد عودة الملكية فإن الأراضي والقصور التي تملكها في نيفرنه قد أصبحت هباءً ، في الوقت ذاته ضاعت أراضي ديان وقصورها ، في نيفرنه أيضاً .

أزواج مدمرون ، ماجنون ، لكن لهم مكانتهم في علية المجتمع وهم من العسكريين المرموقين : فكادينيان عقيد أمر لخيلة الحرس الملكي ، بل وشجاع أيضاً ، ووفقاً لعبارة ممسوحة لبلزاك « فقد أبلى بلاءً حسناً عند حصار قادس » . أما العقيد دي كاستلان فقد كان أمراً لمفرزة خيلة قادس ، ثم أصبح قائداً في ١٨٠٢ . لفريسان الحرس الملكي .

كل شيء محسوب لدى « مؤرخ الطبائع » حتى العائلات والأسماء. فتشوش المصاهرات بين آل نافرين وآل النكور من ناحية كادينيان يقابله تشوش لدى آل كاستلان مع آل لاروشتفوكو وآل روهان ، والورث هنري دي كاستلان «ذو الوجه الصبح الذي يذكر بأمه» يقابله جورج دي موفرينيوز الذي تقول عنه ديان : « إنك تدهش لتشابهه معي» وإذا كانت أم ديان من آل أوكل (وتلفظ أوكل) فأم كورديليا من آل أوبوسون، وهذان الاسمان متقاربان كتقارب أوبسون وأوكل في مقاطعة الأوفرني .

أما ما يتعلق باسم كادينيان ، فكان أولا كارينيان في السيدة فيرمياني والحال ففي عهد عودة الملكية ، تعرضت أميرة من آل كارينيان وكونتة دي كاستلان لحادث مشترك شهير ومؤلم فقد وضعت النار في ثوبيهن فقضت الواحدة كما الأخرى محترقتين بشكل مؤلم (١) .

من ناحية كورديليا ، يشير رموزا ، وهو راستينيالك في القصة ، الى أن « خير ما فيها هي الشجاعة التي تعرف كيف تتحلى بها في مواضع الألم والمصيبة ، فأصعب المواقف لا تجدها دون قدرة او دون موارد » والشجاعة لا تنقص أبداً ديان ولا «عنفوان الروح ، او جلاء التقدير ، او يقظة التقرير ، أو اللامبالاة ، او اتخاذ موقف من بعض أشياء يرتعد منها الانسان » .

باقتراهما بكائنين ضعيفين ، يضاف إلى أن أحدهما «كامند نكد» والآخر «ذو ذهن منغم» «تظهر من هاتين السيدتين ردود فعل متوقعة ، فالسيدة دي كاستلان تلاحظ سريعاً أنها قد ارتكبت حماقة وأن ليس لديها طريقة أخرى لاصلاحها إلا بارتكاب حماقات أخرى » وهذا ما فعلته ببعض الدوي . كذلك كانت ردة فعل ديان مغامراته صاحبة .

(١) بهذا : أخبار اللوحة دي ديتوي .

اما الزوج ، « فالدوق قد ترك لامراته حرية كاملة في تصرفاتها ،
وذهب يلهو من معسكر الى آخر ... مجاهراً بتسامح زوجي كامل ،
منبئاً الدوقة مسبقاً قبل ثمانية ايام عن موعد عودته إلى باريس » ، اما
كاستلان فيقيم حفلات الرقص والأعياد من معسكر إلى آخر « وهو في
قرارة نفسه رجل غير اخلاقي ، وقد تلاءم جيداً مع تصرف زوجته ...
وهو المنفصل عنها دون انقطاع ولدة طويلة ، لكنه لع يقطع علاقته معها
فعندما يكون في باريس ، يصعد لديها لنحو نصف ساعة في السهرة ...
ثم ينصرف .

عندما حل الخراب والنسيان ، يكلف بلزاك راستينيالك وبلونده
بالتذكير بالماضي الشهير والمشين لديان : حوادث طيشها الاولى مع
دي مارسي ، ثم تناقضاتها الثانية مع دي أجودا ... ثم ارتباطها الثالث
مع دسغرينيون الشاب ... ثم كم كانت تعيسة مع سفير مشهور ...
وكيف كانت مسموعة الكلمة لدى وزير خارجية . إذا كانت الأسماء
البلاكية المعروفة للنزوات الثلاثة الاولى اديان تبدو ، عند الاقتضاء ،
بريئة ، فماذا يقال عن الآخرين ؟ عندما نعرف شهرة علاقة كورديليا
بشاتوبريان في الفترة ذاتها التي كان فيها وزيراً للشؤون الخارجية ثم
« سفيراً شهيراً » ، وعندما نفكر أن مولتي بقي خلال ثلاث سنوات وزيراً
للخارجية ، هو أيضاً ؛ إن مثل هذه التلميحَات تنم خاصة عن أشياء
صريحة .

سيكون من العجق أيضاً أن نتهم بلزاك بإفشاء الأسرار اعتباراً
وبشكل مبتذل أو بنقص في مخيلته ، لكنه وهو « المؤرخ أكثر منه
روائياً » يجد أنه أقلّ حرية في تعديل هذه الأسباب التي ادت الى تلك
النتائج في حكاية كانت استثنائية كما كان استثنائياً العمل الفني الذي
قدمته إليه الطبيعة والتطرق إلى الأحداث المعاصرة ، إذ في الفترة التي
كتب فيها بلزاك قصته كان على اطلاع بأصعب قضيتين ربحتهما الكونته
دي كاستلان : استعادة الحظوة لدى مولتي ، وزواج ابنتها .

قصة ديان الجذابة الماهرة المدمرة ، وقد كتبت في حزيران ١٨٣٩ ،
تبدأ في الفترة المحددة التي كانت تخطط فيها لتزويج ابنها بواحدة من
أغنى وأنبل الوارثات في **المهارة الإنسانية** « وربما كان هذا المشروع ،
على ما يلاحظ بلزك ، هو سر المودة التي حافظت عليها مع المركيزة » ،
وهو يجعل المركيزة دى إسبار تقول من جهتها : « آه ، إنها رائعة في
معاملتها لابنها . . من كان يعتقد أن هذه المرأة الخفيفة قادرز على هذا
التصميم الذي اتبعته بعناد ، وهكذا فإن بطيركنا الطيب الذي شجعها
بدأ في غاية الوفاء معها ، بل إنه قد أقنع والده الوريثة » والحال ففي
تشرين اول ١٨٣٨ سجلت الدوقة دى دينو في مذكراتها : « رأيت كثيراً ،
في الأيام الأخيرة ، كونتة دي كاستلان تنشط بطريقة غير معقولة . . إن هذا
يبرهن على الوضع الذي ستكون عليه ابنتي التي تريد زواجها بهنري
الشاب . . . لقد استشرت البارحة سيادة البطريرك الذي بدأ لي أنه
وجد من جميع ما ثبت حتى انوقت الحاضر ، أن هنري دى كاستلان
يبشر لكفاءته الشخصية بالحظ الأكبر لسعادة أسروية (١) » . « لم يكن
يصدق هذا » ، هذا « لا يصدق » ومع ذلك . . . ففي ٩ نيسان ١٨٣٩
تزوج هنري دي كاستلان ابنة الدوقة ، بولين دي تاليران - بريفور
إحدى أغنى وأنبل الوارثات في فرنسا .

في اقترابه من خاتمة القصة يجيز بلزك لنفسه هذه الملاحظة :
« بين هاتين المرأتين الشهيرتين في المجتمع الحالي توجد واحدة أقوى
من الأخرى ، وكانت الأميرة تهيمن بذكائها على المركيزة » . لقد برهن
زواج ولد الكونتة دي كاستلان على تفوق كورديليا الشهيرة هي أيضاً
رغم عزلتها .

إن قراءة **مدرسة العائلات الحديثة** لدى كوستين ، في نيسان ١٨٣٩
قد هيأ لبلزك أن يعجب بقوة كورديليا مع كوستين وهو جار في الريف
لآل كاستلان : ومع ستندال أيضاً الذي قدر مولي والسيدة دي كاستلان

(١) أخبار الدوقة دي دينو ، الجزء الأول ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .

وكان قد أنهى كتابة **حبيسة بارم** التي أعجب بها بلزك كثيراً ، وخاصة بسرده حكاية رئيس الوزراء موسكا والفاتنة المفتقرة سانسفرنيا .
والحال أن الملامح الوحيدة لحياة ديان غير المستمدة من حياة كورديليا - هي الهيام الصافي واليقظ الذي أبداه لها الشاب الجمهوري ميشيل كرستيان ، والخلوة التي تمت لديها للمتأملين على الملك في غفلة عن عشيقها رئيس الوزراء - ويبدو أن هذا المقطع يرد مباشرة من هيام الجمهوري فرانت بالا بسانسفرنيا والمؤامرة التي حيكّت لديها ضد الأمير وفي غفلة من الكونت موسكا .

إن واقعة قسم تم ربحه بمهارة مكنت من توليد فكرة كتابة الرواية، لكن القسم الآخر المكتسب - وهو حب رجل متفوق - أصبح هو الموضوع الرئيس ، وهنا تكمن قيمة **التحفة الفنية** ؛ وقد كان بلزك واعياً لذلك حيث كتب في ١٥ تموز ١٨٣٩ الى السيدة هانسكا : « إنها أكبر كوميديا اخلاقية وجدت . إنها تراكم أكاذيب تمكنت بواسطتها امرأة في السابعة والثلاثين من العمر ، هي الدوقة دي موفربنيوز ، وقد أصبحت بالوراثة الاميرة دي كادينيان ، أن تظهر بمظهر قديسة ، وفاضلة ، وفتاة متميزة امام عاشقها الرابع عشر . . . والتحفة الفنية هي في إظهار هذه الاكاذيب وكأنها صحيحة وضرورية وبررها الحب » .

من حسن الحظ ، ومن أجل أن نعجب في آن واحد بالاميرة الباريسية الحقيقية وبلزك ، أن الكونت مولي قد كتب **مذكراته** ؛ وهيامه اللامبالي بالسخرية « بالمالك » الذي جعله « أكثر تدينا ، وأكثر تدقيقاً ، رجلاً أفضل (١) » هو هيام دارتز ، وفي تقدم وتراجع فصول القصة ، ما من مقطع يجب تغييره : فالقراءات مدققة ، والفن خارق في « إظهار تبرجات الروح والجسد الجميلة » ، وارتباكات المعجب ، المفرط في وقاره ، ثابتة . حتى توقيت الرواية لا يتغير ، « والأسرار » حيث

(١) مذكرات مولي ، الجزء الخامس ، ص ٢٨٠ .

ديان تكبّل دارتز وهي تتحدث عن طفولتها ، ويفاعها ، والظروف الخاصة التي أحاطت بزواجها ، وفساد أهلها ، وزوجها ، وأمها ، مضيئة بعد ذلك : « بعد عشرين سنة من المصائب وخيبات الرجاء ، والافتراءات المتحملة ، واللل القاتل والمسرات المجهضة ، الا أكون مستعدة لأجتو على قدمي رجل يحبني بإخلاص والى الأبد .

في مذكرات مولّي ، كل شيء قد سجل حتى التفاصيل الأكثر خصوصية ، وعندما أذفت ساعة الرواية لدى السيدة دي كاستلان قالت له : « اجلس ، ولنتحدث بجد : كانت مستعجلة لنقص عليّ كل ما فعلته وما فكرت أو شعرت به منذ ولادتها ، طفولتها ويفاعها ، والظروف التي رافقت زواجها المشؤوم ، ومكياقلية الأهل الجهنمية ، وانتهت بأن هبطت الى أسرار أحزانها الحالية والفسادات المترعة التي أحاطت بها . **الأسرار** .. قالت له أخيراً بأن أخطاءها وآلامها بينت لها قيم الحسنات التي أفلتت منها ، واحست بدرجة من الهوى تعود إلى ما عانته من تجارب ونكبات .

ذلك ان الأميرة الباريسية الحقيقية لم تكتف بأسر قلب رجلها العظيم ، وإنما استعادته مجدداً ، فقد كان مولّي عشيقها الأول ، وكانت تقول إنه كان هواها الوحيد الحقيقي ، وإن مؤامرة سوداء أبعدهت عنها ، لكنها أملت دائماً أن يعود اليها : « يوجد شيء من التمثيل في طريقة تركيب عواطفها وحياتها لاحظت رموزاً ، لأنها مكيفة كبيرة (١) . » حول موهبة ديان ، وهي أيضاً مكيفة كبيرة للغاية ، ومن أجل « تركيب عواطفها وحياتها » ، والوصول إلى النتائج ذاتها ، تقيم « أكبر كوميديا أخلاقية (٢) » كل عرض أسرار الأميرة دي كادينيان ، فضلاً عن ذلك ينسب إليها بلزك فكرة غريبة كأنها هفوة ، « نعم ، إن تحت العديد من التجارب يكمن حب أول يمكن أن ينخدع » .

(١) رموزاً : الجزء الثاني والثالث من مذكراتها .

(٢) كما وصفها بلزك في رسالته للسيدة هانسكا بتاريخ ١٩ تموز ١٨٢٩ .

أن تتمكن كورديليا بعد عشرين سنة من علاقتها الأولى مع مولي ،
وبعد مجموعة مغامرات متوسطة الصخب أن تستعيده ، يبدو حدثاً
متميزاً لا يقل في تذييل عقباته عن صنيع ديان ، وقد كان الدوق دي
فيتز جامس الذي يعرفها منذ مدة طويلة ، وبحبها كابنته ، بمثابة موضع
سر الكونتة ، وربما عرف بلزلك عن طريقه او عن طريق ابنة اخته ، المركيزة
دي كاستري ، قصة « الأسرار » ، قصة كتلة الأكاذيب التي تمكنت
بفضلها أن تجدد لدى مولي ، ولبقية عمره إيماناً كاملاً ، إيمان منتصري
أيام ازدهار المسيحية ، إيمان دارتز .

لكن إن كانت الأسرار قد خلصت إلى احاطة مهارة « المثلثة
الكبيرة » بالاعجاب ، فإن بلزلك قد عرف كيف يفهم أن انتصارها هو
انتصار الحب الحقيقي ، « فالتحفة الفنية » ليست فقط في أنها قد
« وجهت الأنظار » وإنما في أنها قد رأت في البدء الأكاذيب وكأنها صحيحة
وضرورية ومبررة بالحب .

أن ماري ميننجه

فاسينو كان

FACINO CANE

قصة من الحياة الباريسية

فاسينو كان

كنت أسكن سابقاً في شارع صغير لا تعرفونه على الأرجح ، إنه شارع لديفير : وهو يبدأ من شارع سان - انطوان ، مقابل نافورة ماء قرب ساحة الباستيل ، وينتهي في شارع لا سيريزه ، ودفعني حب العلم الى سقيفة أعمل بها خلال الليل ، واقضي النهار في المكتبة المجاورة ، إنها مكتبة مسيو(١) . كنت أعيش بزهد ، وارتضيت جميع شروط الحياة الديرية الضرورية للمكدين ؛ اتنزه قليلاً في جادة بوردون عندما يكون الطقس جميلاً ، وكانت هذه هي الهواية الوحيدة لي غير عاداتي الدراسية ، لكن ليست هي دراسة أيضاً ؟ إذ من خلال ذلك لاحظت طبائع الضاحية ، وسكانها ومزاياهم . كانت ثيابي كثياب العمال ، وكنت لا مبالياً باللياقة فلم أكن أثير انتباه الناس ، ويمكنني أن اختلط بجموعهم وأراهم يمارسون صفقات البيع والشراء ويتجادلون في موعد مغادرتهم لأعمالهم ؛ بحيث أصبحت الملاحظة لدي بديهية ، تغفلت الى النفس دون أن تهمل الجسد ، أو بالأحرى تتناول جيداً وبسرعة التفاصيل الخارجية وتنتقل مباشرة إلى ما بعدها ، مما يعطيني القدرة على تمثيل حياة الفرد كما يمارسها تماماً ويتيح لي أن أتصور نفسي كدرويش ألف ليلة وليلة الذي يتقمص الأشخاص روحاً وجسداً بعد نطقه بعد نطقه ببضع كلمات .

صادفت بين الحادية عشرة ومنتصف الليل عاملاً وزوجته عائدين سوية من مسرح الامبيغو - كوميك(٢) ، واستمتعت بتبعهما من

(١) هي مكتبة الأرسنال حالياً .

(٢) مسرح شعبي يعرض مسرحيات مأسوية هزلية .

جادة يون - أو - شو حتى جادة بومارشه . كان هؤلاء الأشخاص الطيبون يتحدثون أولاً عن المسرحية التي شاهدها ، ومن موضوع إلى آخر يصلون إلى مشاغلهم ، والام تجر ولدها من يده دون أن تبالي بطلباته أو شكوايه ، والزوجان يحسبان الدراهم التي ستدفع لهما في اليوم التالي ، ويجد أن عشرين طريقة لانفاقها ، ثم يتطرقان إلى تفاصيل الحياة الزوجية ، والشكاوى من ثمن البطاطا المرتفع ، أو من طول مدة الشتاء وغلاء سعر اقراص الزبدة ، ويمرضان بحماسة ما يتوجب عليهما دفعه للخباز ، وأخيراً تتفاقم مناقشاتهما معبراً كل منهما عن طبعه بكلمات مثيرة .

بسماعي حديث هؤلاء الأشخاص أستطيع تفتص حياتهم وأشعر هندئذ بأسمالمهم على ظهري ، وأسير وقدماي في أحذيتهم المشقوبة ، وروحي مثقلة برغباتهم وحاجاتهم ، فكان هذه الروح حلت في أجسادهم .

إنه حلم رجل واع ، اتحمس معهم ضد رؤساء المعامل الذين يضطهدونهم ، أو ضد الاجراءات السيئة التي تجعلهم يعيدون العمل عدة مرات دون أن يدفع لهم . كانت تسليتي أن أتخلى عن عاداتي وأصبح انساناً آخر بنشوة قدراتي المعنوية وكنت أمارس ذلك عندما أريد ، من أين لي هذه الموهبة ؟ أهو استبصار ؟ أهى إحدى الميزات التي تقود المغالاة فيها إلى الجنون ؟

لم أبحث أبدًا من أسباب هذه القدرة ، إنني أملكها واستخدمها ، هوذا كل شيء ، لكن اعرفوا أنني منذ ذلك الوقت فككت عناصر هذه الكتلة غير المتجانسة المسماة الشعب لآتمكن من تحليلها بطريقة اقوّم فيها حسناتها وسيئاتها ؛ وقد عرفت عند ذلك أي فائدة يمن أن تقدمها هذه الضاحية ، هذا المنتدى من الثورات الذي يضم ابطالاً ، ومخترعين ، وعلماء عمليين ، وخبثاء ، واثيمين ، وفضائل ورذائل وكلها مكظومة باليؤس ، مخنوقة بالحاجة ، غريقة باحتساء الخمر ، مبتذلة بالمشروبات القوية . لا يمكنكم أن تتصوروا عدد المفامرات الضائعة ، وعدد المآسي المنسية في مدينة الآلام هذه ! وكم فيها من أشياء رهيبة وأخرى ممتعة !

إن المخيلة لا يمكن أن تصل ابداً الى الحقيقة المحتجة في هذه المدينة ، وما من أحد يمكنه أن يذهب لاكتشافها . يجب الهبوط الى أدنى المستويات للعثور على هذه المشاهد الجديرة بالاعجاب لمساويتها أو سخريتها ، إنها تحف ولدتها الصدفة .

لا أعلم كيف صمت "طويلاً" عن القصة التي سأسردها عليكم ، وهي تشكل واحدة من هذه القصص المثيرة للفضول المستقرة في مخزون الذاكرة ، وهي تخرج فيها كيفاً كأنها أرقام اليانصيب .

إن لدي قصصاً أخرى ، لا تقل طرافة عن قصتي هذه ، لكنها متوارية أيضاً في هذا المخزون ، لكن سيأتي دورها ، ثقوا من ذلك .

في أحد الأيام رجنتي منظمة غرفتي ، وهي زوجة عامل ، أن اشرف بحضوري عرس إحدى أخواتها ؛ ولتدركوا ما يمكن أن يكون هذا العرس ، يجب أن أخبركم أنني ادفع لهذه المخلوقة المسكينة أربعين فلوس قريباً إلي البؤس ، ولم أستطع يوماً أن أقدم إليها أكثر من عشرة ثيابي ، وتكنس غرفتي ، وتحضر غداً ، تم تذهب فتقضي بقية يومها في إدارة مقبض آلة ميكانيكية لقاء عشرة فلوس في اليوم الواحد ، أما زوجها وهو نجار فيكسب أربعة فرنكات ، ولما كان لهذه العائلة ثلاثة أولاد ، فكسبهم يكاد لا يكفيهم خبز يومهم . لم ألق ابداً استقامة أشد وفاءً من تلك التي يتجلى بها هذا الرجل وامراته ، عندما تركت الحي ، وخلال خمس سنوات ، كانت الأم قايان تأتي لتهنئني بعيد ميلادي وهي تحمل لي باقة أزهار وبرتقالاً ، هذه المرأة لم تدخر يوماً أكثر من عشرة فلوس قريباً إلي البؤس ، ولم أستطع يوماً أن أقدم إليها أكثر من عشرة فرنكات أستعيرها غالباً لتلك المبادرة . إن هذا يمكن أن يشرح وعدي بالذهاب الى العرس ، إذ نويت أن أقاسم هؤلاء الناس المساكين فرحهم .

كانت الوليمة وحفلة الرقص لدى تاجر نبيذ في شارع شارنتون ، في الطابق الأول ، في غرفة واسعة مضاءة بمصابيح ذات عواكس من

التنك ، وهي مفروشة بورق وسخ حتى ارتفاع المناضد ، وعلى طول الجدران توجد مقاعد من خشب . في هذه الغرفة تجمع نحو ثمانين شخصاً مهتمين ، يحملون باقات الزهر وشرائط ، يتحركون ببهجة رواد كورتى (١) . وقد احمرت وجوههم وهم مستغرقون في الرقص كأن العالم سينتهي غداً ، والعروسان يتبادلان القبل بين استحسان الحاضرين وزغاريدهم الفكهة لكنها فعلاً أكثر احتشاماً من الغمزات الخجلى التي تبدر من الفتيات المهذبات ، وكل هؤلاء الناس يعبرون عن انشراح زائد يسري كالعدوى .

لكن لا سحنات هؤلاء البشر ، ولا العرس ، ولا شيء في هذا الجمع يمت الى قصتي بصلة ، إنما أردت أن ابين لكم غرابة المحيط وأصور منظر هذا الدكان البشع المدهون بالأحمر الذي تفوح منه رائحة الخمر ، وأسمعكم صرخات البهجة وأضعكم وسط هذه الضاحية ، بين هؤلاء العمال والشيوخ والنساء التعمسات المنصرفات الى فرحة ليلة واحدة .

كانت الفرقة الموسيقة مؤلفة من ثلاثة عميان من ملجأ كينز - فين (٢) ، وكان الاول عازف كمان والثاني لاعب مزمار ، والثالث صافر شبابة . وثلاثتهم يتفاوضون سبعة فرنكات عن الليلة ، ومن المؤكد أنهم بهذا السعر لن يعزفوا الحان روسيني أو بتهوفن ، وإنما يؤدون ما يريدون وما يستطيعون ، وما من احد ، في مراعاة لطيفة لوضعهم ، يوجه إليهم اي لوم .

بعد أن ألقيت نظرة على هذا الحشد ، والموسيقى تصم أذني ، لفت انتباهي ثلاثي العميان ، وأحسست ، وأنا أتعرف عليهم ، من بزاتهم بشعور بالشفقة .

كان هؤلاء الفنانون أمام فتحة نافذة ، لذلك يجب لتمييز سحناتهم الاقتراب منهم ، وهذا ما لم أفعله سريعاً ، لكنني عندما أصبحت الى

(١) قرية قريبة من بلغيل قامت بها في مطلع القرن التاسع عشر حانات يتجمع فيها صفار البورجوازيين والتجار وعمال العاصمة .

(٢) أو ملجأ (١٥ - ٢٠) المقام منذ العام ١٧٨٠ في دار الفرسان السود في شارع شارلتون - ضاحية سان انطوان .

جانبيهم ، غابت عني الموسيقى والعرس واستشر فضولي الى اعلى درجة ، وتملكني شعور واحد ، كان روحي قد انتقلت الى جسد لاعب الزمار ، فلما زف الكمان والصارف بالشبابه كليهما وجه عادي ، الوجه المعروف لاعمى ، المليء بالانتباه المركز المرهف والحاد ؛ أما وجه لاعب الزمار فاحدى هذه الظواهر التي تستوقف فجأة الفنان والفيلسوف .

تصوروا قناع دائني الجبصيني وقد اضيء بلهب المسرحة الاحمر وعلته غابة من شعر ابيض فضي ، وتضخم التعبير المر والمؤلّم لهذا الرأس الرائع بتأثير العمى ، لأن العينين الميتتين تحيان بالفكر فينطلق منهما بريق حارق ، ناتج عن رغبة وحيدة ، مستمرة ، مرتسمة بقوة على جبهة محدبة تقطعها تجاعيد شبيهة بمداميك جدار قديم ؛ كان هذا المعجوز ينفخ كيفما اتفق دون أن ينتبه لا للحن ولا للايقاع ، واصابعه تنخفض أو ترتفع تحرك المفاتيح العتيقة بألية الاعتياد ، فلا يكلف نفسه باجراء ما يسمى في تعابير الاوركسترا «الاصوات الصارخة» والراقصون لا تبدو منهم ابي ملاحظة ، وكذلك مساعداً إيطاليّ هذا ، لانني اردته ايطالياً ، فهو إذا ايطالي .

شيء ما كبير وطاقر نلقاه في هذا المعجوز الشبيه بهوميروس والمحتفظ في ذاته باوديسة محكوم عليها بالنسيان ؛ إنها عظمة بلغت من حقيقتها انها تنتصر على حقاترها ، وإنها استبدادية بلغت من حيويتها أنها تهيمن على الفقر .

ما من هوى من الأهواء العنيفة التي تقود الرجل الى الخير أو الى الشر ، وتجعل منه مجرماً أو بطلاً ، ينقص هذا الوجه النبيل التقاطيع ، الايطالي الداكنة المظلل بحواجب وخطها الشيب تلقي بظلالها على وقبين عميقين يثيران الرعدة لرؤية وميض الفكر يبرق فيهما كبريق الدرر لرؤية فوهة مفارة يبرز منها بعض قطاع الطرق وهم يحملون المشاعل والخناجر . يوجد أسد في هذا القفص من اللحم ، أسد تخامد غضبه عبثاً على حديد قضبانه ، ولهيب القنوط انطفأ في رماده ؛ لقد بردت اللابئة (١) ، لكن أثلامها ، وتشويشاتهما ، وقليل من دخانها تشهد على عنف الاندفاع ، وقتك النيران .

(١) اللابئة Love : العنم اللهب المنطق من فوهة البركان . كلمة معربة

(المترجم)

هذه الافكار التي ايقظها مظهر هذا الرجل كانت مضطربة حارة في روحي بقدر ما هي خامدة باردة في وجهه .

بين كل استراحتي رقص ، كان عازف الكمان وصافر الشبابة ينشغلان كلياً بكاسيهما وزجاجة نبيذهما ، فيعلق كل منهما أدواته الموسيقية بزر معطفه المائل الى الحمرة ، ويتلمس بيده منضدة صغيرة موضوعة على فتحة النافذة حيث وضع مشروبهما ، ويصب أحدهما كأساً يقدمه للايطالي الذي لا يتمكن من فعل ذلك بنفسه لأن المنضدة موجودة خلف كرسيه ، وفي كل مرة يشكر عازف المزامير زميله بانحناءه محببة من راسه ، وكانت حركاتهم تتم بتلك الدقة التي تدهش دائماً لدى عميان كنز - فين ، حتى ليخال المرء أنهم مبصرون .

اقتربت من العميان الثلاثة لاستمع إليهم ، وبدا لي انهم يدرسونني عندما أصبحت في مواجهتهم وكأنهم ادركوا أنني لست من فئة العمال ، ولزعموا الصمت « من أي بلد أنت ، يا لاعب المزامير ؟ » سألت .

- « من البندقية » اجاب الاعمى بلكنة إيطالية .

- هل ولدت ضريباً أم أن العمى أصابك نتيجة ...

- نتيجة حادث ، إنها « كمننة»^(١) لعينة « اجاب بحدة .

- البندقية مدينة جميلة ، لقد تملكنتي الرغبة دائماً بزيارتها .

بدت الحيوية على سحنة الشيخ وتحركت تجاعيده وغلب عليه التأثر ، وقال لي « إن ذهب معك إليها فنن تضيع وقتك » .

(١) الكمننة' او الكمنه Amaurosé : آفة في طبقات العين تحدث عن قوة نابذة او فرط توتر شرياني او بيلة آحينية أو هيستريا الخ ... (المترجم) .

– قال لاعب الكمان : « لا تحدثه عن البندقية وإلا بدأ دوجنا(١) قصة طويلة ، خاصة وأن فنينتين في قمقمه ، هذا الأمر .

– وقال الصافر بالشبابة « هيا الى العزف ، أيها الأب كنار .

وراح الثلاثة يعزفون ، لكن خلال الوقت الذي كانوا ينفذون فيه أربعة رقصات كدريل ، بدأ وكان البندقي يلمسني ولطئه ضمن ما أثار في من اهتمام زائد ، فقد زال عن هيئته تعبير الكتابة البارد ، ولا أعلم أي أمل أفرج أساريه وسال كشعلة زرقاء في تجاعيده ، فابتسم ومسح جبينه ، هذا الجبين الجريء الزهيب ، أخيراً بدأ مرحاً كرجل يمتطي صهوة حصانه .

– كم عمرك ؟ سألته .

– اثنتان وثمانون سنة .

– منذ متى وانت أعمى ؟

– « منذ نحو خمسين عاماً » ، أجاب بلهجة تبدي أسفاً لا يقتصر فقط على فقدان بصره ، وإنما أيضاً على قدرة كبيرة جرد منها .

– لماذا يسمونك إذا الدوج ؟ سألته .

– آه ! إنها هرجة ، فأنا مواطن من البندقية وبذلك أكون دوجاً كبقية سكانها .

– ما اسمك إذا ؟

– هنا يسموني الأب كاني ، ولم يكتب اسمي في السجلات بغير هذا الشكل أما بالإيطالية فاسمي ماركو فاسينو كان أمير فاريز .

(١) الدوج Doge : هو الرئيس المنتخب في جمهورية البندقية القديمة (المترجم) .

– كيف أنت من سلالة قائد المرتزقة الشهير فاسينو كان الذي انتقلت فتوحاته الى ادواق ميلانو .

– « فعلاً ، في ذلك الزمن لجا ابن كان الى البندقية كي لا يقتله آل فيسكونتي ، وقد سجل في الكتاب الذهبي ؛ لكن لا يوجد الآن كان : إلا في الكتاب » وبدت منه حركة مرعبة تعبر عن ولاء وطني زائل وقرف من الاشياء البشرية .

– « لكن إن كنت من أعيان البندقية ، فيجب أن تكون غنياً ! ؟ فكيف فقدت ثروتك .

عند هذا السؤال رفع رأسه نحوي بحركة مأساوية فعلاً كأنه يريد ان يتألمني واجابني : « في التعاسات » .

لم يعد يفكر بالشراب ، ورفض بحركة من يده كأس الخمر الذي قدمه إليه في تلك اللحظة الصافر بالشبابة ، ثم خفض رأسه .

هذه التفاصيل لا تقنع بطبيعتها فضولي ، وخلال رقصة الكدريل التي عزف موسيقاها هؤلاء الثلاثة ، تأملت النبيل البندقي المعجوز بالمشاعر التي تهز شاباً في العشرين من عمره . كنت أرى البندقية والبحر الأدرياتيكي ، رأيتها خراباً في ذلك الوجه الخرب ، تنزهت في تلك المدينة الغالية على سكانها ، ذهبت من الريالتو حتى القناة الكبرى، ومن رصيف الاسكلافون حتى جزيرة الليدو وعدت الى كاتدرائيتها بكل سموها الاصيل ، وتأملت نوافذ الكلازا دورو وكل واحدة منها بزخارف مختلفة عن الأخرى ، وتأملت قصورها العتيقة بكل ما فيها من بدائع المرمر ، أخيراً كل هذه العجائب الفريدة التي ينسجم معها العالم بقدر ما يلونها على هواه ، ولا يتخلى عن شاعرية أحلامه بمشهد الواقع .

صعدت في مجرى حياة سليل أكبر قواد المرتزقة ، باحثاً فيها عن آثار تعاسته ، وأسباب هذا الانحطاط العميق مادياً ومعنوياً ، وهي

تزيد من جمال هذه الشرارات من الكبر والنبيل المستشارة في تلك اللحظة ، كانت أفكارنا مشتركة دون شك ، لأنني اعتقد أن العمى يجعل التواصل الفكري أكثر سرعة لأنه يمنع الانتباه من أن يتشتت في أشياء خارجية .

لم يتأخر البرهان على دليل انسجامنا ، إذ توقف فاسنيو كان عن اللعب ، ونهض وتوجه نحوي وقال لي : « لنخرج » .

أحدثت حركته ما يشبه رذاذاً كهربائياً مصوباً نحوي ، فأعطيته ذراعاً وخرجنا .

عندما أصبحنا في الشارع قال لي : « أتريد أن تعود بي إلى البندقية ، أن تقودني إليها ، أتريد أن تثق بي ؟ إنك ستغدو بذلك أكثر غنى من البيوت العشرة الأكثر ثراء في امستردام أو لندن ، أكثر غنى من آل روتشيلد ، أخيراً أحد أثرياء « الف ليلة وليلة » .

خيل إلي أن هذا الرجل مجنون ، لكن قدرة في صوته جعلتني أذعن لها . ورحت منقاداً له حتى أوصلني إلى حفر الباستيل كأنه شخص مبصر ، حيث جلس على حجر في مكان منعزل جداً - كان فيما بعد رأساً للجسر الذي يربط قناة سان مارتن مع السين . جلست على حجر آخر أمام هذا العجوز ، وشعره الأبيض يلتمع كخيوط من فضة تحت ضوء القمر ، والسكون يسود على الضجة العاصفة البعيدة الوافدة إلينا من الجادات ، وصفاء الليل يسكب على هذا المشهد سحراً حقيقياً .

قلت ، « إنك تعد بالملايين شاباً ، وتعتقد أنه يتردد في أن يكابد ألف مشقة لاقتطافها ! ألا تسخر بذلك مني ؟

رد علي بعنف : فليمتني الله دون اعتراف لغفران خطاياي ، إن كان في قولي لك غير الحقيقة . كنت في العشرين من عمري أي بمثل سنك الآن ، وكنت غنياً ، وفاتناً ، ونبيلاً ، وبدأت بأولى الحماقات ، بالحب ، واحببت كما لم يحب من قبل حتى المجازفة بأن أوضع في صندوق بعد طنني بالخناجر دون أن ألقى إلا وعداً بقبلة ، بدا لي أن الموت في سبيلها حياة أخرى .

في العام ١٧٦٠ غدوت مفرماً بسيدة من آل فاندرايني في الثامنة عشر من عمرها متزوجة من نبيل من آل ساغردو ، أحد أغنى الأعيان ، رجل في الثلاثين من عمره يعبد امراته ، كنت ومحبوبتي في براءة الملائكة عندما فاجأنا الزوج تناجي بأحاديث الغرام ، وكنت غير مسلح ، وخابت طعنته وهجمت عليه وشدت على عنقه بيدي الاثنتين وخنقته كما يخنق فروج ، وارتد الهرب مع بيانكا ، لكنها أبت أن تتبعني ، آه هذه هي المرأة ! وهربت وحدي ، وحكمت ، وصودرت أملاكي واعتبرت حقاً لورثتي ، لكنني حملت معي جواهري ، وخمس لوحات ملفوفة لتيتيان وكل ما أملك من ذهب ، وذهبت إلى ميلانو ، حيث كنت مطمئناً فقضيتي لاتهم حكومتها ، ثم أردف بعد توقف قصر . « ملاحظة صغيرة أود إيرادها قبل متابعة قصتي : يخيل لي أن نزوات المرأة تؤثر على جينيتها وهي حامل به ، ولاشك أن أمي كانت مفرمة بالذهب وأنا في أحشائها ، فإن اشباع هوسي الأحادي بالذهب ضروري في حياتي ، إذ أجد في أي وضع كنت حاجة ملحة لحمل ذهب أداعبه باستمرار بين يدي ، وقد كنت اتقلد الحلبي الذهبية في شبابي وأحمل معي دائماً مئتي أو ثلاثمئة دوكا ذهبية بعد أن تفوه بهذه العبارات أخرج من جيبه قطعتي دوكا ذهبيتين وأراهمالي .

ثم تابع : إنني أحس بالذهب ، حتى وأنا أعمى أتوقف أمام حوانيت الصاغة ، وهذا الهوى أضاعني ، فقد أصبحت مقامراً لالعب بالذهب . لم أكن مكراراً فمكرباً بي ، وهكذا أفلست ، وعندما فقدت كل شيء استبدت بي الرغبة لرؤية بيانكا : وعدت سراً إلى البندقية ، والتقيت بها ، ورتمت في سعادة خلال ستة أشهر ، مختبئاً عندها ، مشبعاً بفدائها ، بحيث فكرت أن أمضي حياتي في هذه المتعة . كان الأمر العام في المدينة يتودد إليها ، وقد خمن بوجود منافس له ، هذا حدس يحسن به في إيطاليا ووضع الأمر العيون تراقبنا ، وفاجأنا ونحن في السرير ، يا للجان ! لك أن تحكم كم كان الصراع مريراً بيني وبينه ، لم اقتله ، لكنني سببت له جروحاً بليغة ، لكن هذه المفامرة قضت علي سعادتي ، فقد كان ذلك اليوم آخر لقاء لي مع بيانكا .

مرت علي أيام هنيئة ، وعشت في بلاط لويس الخامس عشر بين
 اكثر النساء شهرة ، لكنني لم اجد في أي مكان مزايا معبودتي فتاة
 البندقية ، ورقتها ، وحها . كان للأمر العام رجاله الذين استدعاهم ،
 فأحاطوا بالقصر وغزوه ودافعت عن نفسي متمنيا الموت تحت ناظري بيانكا
 التي ساعدتني على قتال الامر . هكذا في السابق ، لم ترد هذه المرأة ان
 تهرب معي ، ولكن بعد ستة اشهر من السعادة ارادت أن تموت بموتي ،
 وقد تلقت في هذا الصراع عدة ضربات . اسرت بعد انلقي علي معطف
 كبير فللفت به وحملت في جندول والقيت في بئر يستخدم زنزانة . كنت
 في الثانية والعشرين من عمري ، وكنت قد احتفظت بقطعة من سيفي في
 يدي بحيث لو أرادوا انتزاعها مني لوجب قطع معصمي ؛ وبصدفة فريدة ،
 او بالأحرى بدافع الاحتياط ، خبات هذه القطعة من الحديد في
 زاوية علني اتمكن من الاستفادة منها . ضمدت جروحي ولم يكن أي
 مهنا قائلاً ، في عمر الثانية والعشرين ، لا يبالي الانسان بشيء ، كانوا
 يريدون أن أموت بقطع رأسي علنا بعد حكم بالاعدام ، وتظاهرت بالمرض
 لاكسب الوقت ، وخلت أني في زنزانة قريبة من القناة ، ووضعت
 مشروعا للهرب بحفر الجدار واجتياز القناة سباحة مجازفا بالتعرض
 للفرق . هذه هي الاسس التي بنيت عليها آمالي .

في كل مرة يحمل لي فيها السجنان ما آكله ، كنت اقرأ على الجدران
 اشارات مكتوبة مثل : جهة القصر ، جهة القناة ، جهة النفق ؛ وانتهيت
 الى ملاحظة مخطط لم اهتم به كثيرا لكنه قابل للتفسير وفق الوضع
 الحالي للقصر الاميري الذي لم ينته بنيانه .

بالعبرية التي تخلفها الرغبة في الحصول على الحرية ، تمكنت أن
 أفك الغاز كتابة عربية - متلمسا سطح حجر بأصابعي - وفيها ينبيء
 كاتبها من سيخلفه انه قد نزع حجرين من الاساس الأخير ، وحفر نفقا
 بطول أحد عشر قدما ، ولأجل أن يستمر في عمله وجب عليه أن يفرش

على أرض الزنزانة قطعاً من الحجر وبقايا الملاط ناتجة عن أعمال
التقب والحفر .

ولما كان الحراس أو المحققون غير مهتمين بهذا البناء الذي لا يتطلب
إلا مراقبة خارجية فإن وضع الآبار التي ينزل إليها بوضع درجات يتيح
إعلاء الأرضية تدريجياً دون أن يلحظ الحرس ذلك . كان مثل هذا العمل
غير مجد ، على الأقل بالنسبة لمن باشر به ، لأن عدم إنجائه يشير إلى موت
المجهول ؛ ومن أجل الاضيق تضحيتي إلى الأبد وجب أن يعرف بها
أسير يفهم العربية ، وبما أنني درست اللغات الشرقية في دير أرمني ،
فإن عبارة مكتوبة خلف ذلك الحجر أنبأتني بمصير هذا التعس ، الذي
مات ضحية ثرواته الهائلة التي طمعت بها البندقية واستخوذت عليها .

لزمني شهر لأصل إلى نتيجة ، بينما كنت أعمل ، وفي اللحظات
التي يرهقني بها التعب ، أسمع رنين الذهب أمامي ، وافتتن بتصوير
الجواهر ! أوه ، انتظر ، في إحدى الليالي ، وصلت قطعة سيفي المثلومة
إلى حاجز من خشب ، وتمكنت بعد أن شحذت طرف هذه القطعة من
فتح ثقب في الخشب ؛ واضطرت لأتمكن من العمل أن أزحف على بطني
كأفمى ، واتجرد من ثيابي لأنقب كالخلد وأنا أمد يدي إلى الإمام جاعلاً
من الحجر بالذات نقطة استناد لي .

ما قبل عشية اليوم الذي يجب أن أمثل به أمام قضائي ، وخلال
الليل ، أردت أن أبذل جهداً آخر ، وثقبت الخشب ، ولم تلق قطعتي
الحديدية شيئاً بعدها . تصور دهشتي وعينايتي تتجولان في النفق ! كنت
في التليسة الخشبية لقبو حيث أتاح لي النور الخافت أن لاحظ كومة
من الذهب كان الدوج وأحد المشرة في هذا القبو ، وكنت أسمع
صوتيهما ، ودلني حديثهما إلى أن الكنوز السرية للجمهورية مودعة هنا ،
أعطيات الدوجات واحتياطات أرباح نقود البندقية وعوائد إرسالها .
لقد نجوت !

عندما أتى الحارس ، عرضت عليه أن يسهل هربي ويهرب معي على أن نحمل كل ما يمكن حمله ، دون تردد .

كانت هناك سفينة قد نشرت أشرعتها متوجهة نحو الشرق ، واتخذنا جميع الاحتياطات ، ويسرت بيانكا جميع الترتيبات التي أمليتها على شريكى المتواطئ معي ، ولكي لا نشير الانتباه قررت بيانكا أن تلحق بنا إلى سميرن (١) .

في الليل وسعنا الثقب ، ونزلنا إلى كنوز البندقية السرية . يا لذلك الليل ! أربعة أطنان من الذهب أمامي ، وفي الغرفة السابقة كانت الفضة مكمومة كومتين لتترك ممر في الوسط ليتمكن اجتياز هذه الغرفة حيث القطع الفضية المكدمسة تصل إلى علو خمسة أقدام قرب الحائط . خيل لي أن الحارس قد أصابه الجنون ، إذ أخذ يفني ويقفز ويضحك ، ويثب فوق الذهب . هددته بالخنق إن أضاع الوقت أو أحدث ضجة ؛ لم يلحظ في فرحته منضدة تحوي الجواهر ، وهرعت إليها بمهارة لأملا سترة البحار التي ارتديها وجيوب سروالي . يا إلهي لم أتناول إلا ثلث ما عليها . تحت تلك المنضدة كومت سبائك الذهب ؛ أقنعت رفيقي بأن يملأ منه أكياسا بقدر ما يتمكن من الحمل ، مبينا له أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي لا تكشفنا في ديار الغربة « فالألأء والحلي ، ، والألماس يتعرف على صاحبها .

لم نتمكن - على شدة جشعنا أن نأخذ إلا ألفي ليبرة ذهبية تطلبت منا ست رحلات بين السجن والجندول ، ورشونا حارس المنفذ المائي بكيس يحوي عشر ليبرات من ذهب ، أما بحارا الجندول فقد اعتقدا أنهما يخدمان الجمهورية . أقلعنا مع الفجر ، وعندما أصبحنا في عرض البحر ، وتذكرت تلك الليلة ، والأحاسيس التي شعرت بها ، وتراءى لي مجددا هذا الكنز الهائل الذي تركته والبالغ وفقا لتقديري نحو ثلاثين مليوناً من الفضة وعشرين مليوناً من الذهب وعدة ملايين من

(١) سميرن : مرها على بحر إيجه وهو مدينة أزمير التركية حالياً .

اللاميس والالاء والياقوت ، انتابتني رعشة اشبه بالجنون ، إنني مصاب بحمى الذهب ، رسونا في سميرن ، ثم اقلعنا بعدها بسرعة الى فرنسة ، ولما صعدنا على المركب الفرنسي ، شاء لي الله أن اتخلص من شريكى ؛ في تلك اللحظة لم أكن أفكر بمدى هذه الاساءة العائدة للصدفة التي سرتني كثيرا ، فقد كنا متوتري الأعصاب الى درجة الحمق ، دون أن ننطق بكلمة ، ننتظر الوصول الى مأمن لنشعر بالغبطة وليس من المستبعد أن يكون ذلك الفبي قد أضاع صوابه ، وسترى كم عاقبني الله . لم اشعر بالاطمئنان إلا بعد أن بعث ثلثي الاميسي في لندن وامستردام وحولت ذهبي الى قيم تجارية . خلال خمس سنوات اختبأت في مدريد ، ثم جئت في العام ١٧٧٠ الى باريس باسم اسباني ، وعشت العيشة الأكثر بدخا بعد أن ماتت بيانكا . وسط متعي وملذاتي ، وبينما أنا ارتع بثروة تقدر بستة ملايين أصبت بالعمى ؛ وما من شك في أن هذه العاهة كانت نتيجة مكوثي في الزنزانة ، ونقبي في الجدران الحجرية ؛ هذا إذا لم يكن تمكني من رؤية الذهب قد اساء الى قوة نظري العادية وهيتاني للمعى .

في تلك الفترة ، كنت مغرما بامرأة أردت أن أربط مصري بها ، فأطلعتها على اسمي الحقيقي ، وكانت تنتسب الى إحدى العائلات القوية ، وقد وضعت أمني في الحظوة التي نلتها عند لويس الخامس عشر ، وأوليت ثقتي لهذه المرأة التي كانت صديقة للسيدة دو باري ، وقد نصحتني بمراجعة طبيب عيون شهير في لندن ، لكن بعد عدة شهور من الإقامة في تلك المدينة، هجرتنى تلك المرأة في هايد پارك بعد أن سلبتني كل ثروتى وتركتني دون أي مورد ، إذ أنني وأنا المجر على كتمان اسمي الذي يعرضني للانتقام البندقية لا أستطيع طلب مساعدة انسان ، وكنت أخشى البندقية ، وقد استثمر جواسيس تلك المرأة عاهتي ، وأضرب لك صفحاً عن المغامرات الجديرة بجيل بلاس (١) .

(١) جيل بلاس : بطل رواية من تأليف لسانج (١٦٦٨ - ١٧٢٧) يعيش بالتحليل على مدى عشرين سنة (١٧١٥ - ١٧٢٥) مما أكسبه الحكمة ، وقد حولها سوفاج ولودويو الى مسرحية كانت تمثل في الأبيغو - كوميك أثناء كتابة بلزاد لقصته .

مع مجيء ثورتكم ، الزمت بدخول كينز - فين ، حيث وضعتني تلك المرأة بعد أن احتجزتني في بيستر لمدة سنتين كمجنون ، ولم أتمكن من قتلها فانا لا ارى مطلقا ، وكنت فقيرا بحيث لم أستطع ان اشترى قاتلا ماجورا . لو انني استشرت بنديتو كاربي ، حارسي ، حول موقع زنزاتي ، لكنك تمكنت من معرفة موقع الكنز ، ولعدت الى البندقية بعد ان قضى نابوليون على الجمهورية . مع ذلك ، وبالرغم من عمالي ، لنذهب الى البندقية ، فسأجد باب السجن وسأرى الذهب من خلف أسواره ، وسأحس به تحت المياه التي تغمره ، لأن الاحداث التي أطاحت بقدرة البندقية وصلت الى درجة جعلت سر كنوزها تموت مع فندرامينو ، أخ بيانكو ، أحد الدوجات الذي عقدت عليه الأمل في مصالحتي مع مجلس العشرة ؛ وجهت مذكرات الى القنصل الأول ، واقترحت معاهدة مع امبراطور النمسة ، لكنهم جميعا اعتبروني مجنونا ! تعال لنذهب الى البندقية ، سنذهب إليها شحاذين ، ونعود منها اصحاب ملايين ، سنستعيد املاكي ، وستغدو وريثي ، ستصبح أمير فاريز .

أذهلني هذا الاعتراف الذي بدا لمخيلتي ذا ابعاد شعرية . أمام مرأى هذا الرأس الأشيب ومياه حفر الباستيل السوداء ، تلك المياه الراكدة كتلك الجارية في اقنية البندقية ، لم أجب بكلمة ؛ وخيل لغاسينوكان دون شك أنني احكم عليه كالأخرين ؛ وباحترار مستخف بدرت منه حركة تعبير عن كل فلسفة القنوط . هذه القصة اعادته ، على ما يبدو إلى أيامه السعيدة في البندقية فتناول زمماره ولعب بأسى اغنية من اغاني البندقية ، لحناً جندولياً استعاد فيه موهبته الأولى ، موهبة النبيل العاشق ، كانت شيئاً يشبه **Super Flumina Babylonis** مما ملأ عيني بالدموع .

لو أن بعض المتزهين المتأخرين مروا على طول جادة بوردون ، لتوقفوا دون شك ليستمعوا الى الصلاة الأخيرة لهذا المنبغذ ؛ لزفرة الأسف لاسم ضائع تختلط معه ذكرى بيانكا .

لكن الذهب عاد الى الصدره ، والهوى المشؤوم اخمد هذه الومضة
من الشباب . واستأنف القول :

« هذا الكنز ، اراه دائماً ، يطربني كما في الحلم ، يرافقتني أينما
حللت ، تتوهج الاميسه من حوني ، فيزول عني العمى الذي تظنون أنه
يخيم على حياتي ؛ ويضيء الذهب والاماس ليلى ، ليل آخر فردٍ من
سلالة فاسينوكان . لان لقبى انتقل بعدها الى آل ميمي . يا إلهي ان
عقاب المجرم قد بدأ باكراً ! السلام عليك يا مريم وراح في صلوات
لم أسمعها » .

هتفت له عندما نهض « سندهب الى البندقية » .

— « لقد لقيت إذا رجلاً » صاح ووجهه يطفح بِشراً .

قدته وهو يتأبط ذراعي ، فشدّه على يدي عند باب كينز — فين
في اللحظة التي كان فيها بعض الأشخاص يعودون من العرس وهم
يصيحون بأصوات عالية .

— اتذهب غداً ؟ سأل العجوز .

— بمجرد أن نجمع بعض المال .

— « لكن يمكننا أن نذهب سيراً على الاقدام ، وأسستجدي في
الطريق . . . ! انني صلب ورؤية الذهب تجدد الشباب » .

توفي فاسينوكان خلال الشتاء بعد أن عانى السقم والضنى مدة
شهرين . لقد أودت بالمسكين نزلة وافدة .

باريس — آذار ١٨٣٦

دراسة حول القصة والمؤلف

اعداد : أندره لوران

فاسينوكان قصة قصيرة الفت في يوم واحد ، ونشرت لأول مرة في **وقائع باريس** بتاريخ ١٧ آذار ١٨٣٦ ، وتظهر في مطلعها وكأنها شهادة سيرة ذاتية لكنها تتجه بعد ذلك في اتجاه مختلف ؛ فهذا الحوار بين مؤلف باريس شاب في بداياته وموسيقي أعمى ، نبيل من نبلاء البندقية المخلوعين ، عجوز على حافة القبر ، يوضح المقولة الأساسية في الفكر البلزاعي « الحياة تتناقض طرداً مع شدة الرغبات أو مع الإسراف في التفكير » .

إن وحدة القصة المدرجة في مشاهد من الحياة الباريسية والمؤلفة من قسمين متباينين في الظاهر تستند الى هذه المسئلة التي توجه **الدراسات الفلسفية** .

في الصفحات الأولى ، نجد بلزاك ، يعاني العزلة في الماربه ، تلك العزلة التي عرفناها من المراسلات والوثائق العائلية التي وصلتنا ؛ فكانت الأسطر الأولى من **فاسينوكان** هو هذا الأونوريه ذو العشرين ربيعاً الذي يسكن منذ شهر آب ١٨١٩ في سقيفة من البناء رقم ٩ في شارع لديفير ، والمشغول بظواهر غريبة من الفكر (هواجس ، وأحلام ، وتخمينات ، وآخذات الخ ...) (١) وهو منصرف الى دراسات علمية

(١) آخذات **Catalepsie** : ضياع القلوصية الإارية من العضلات ضياعاً مؤقتاً ، مع استعداد العضلات والبضع للاحتفاظ بالأوضاع التي تعاطها (المترجم من معجم العلوم الطبية د. خاطر ، د. خياط) .

وفلسفية ، يبحث عن اكتشاف تفسير موحد للعالم المادي والروحي ؛ وهو يريد أن يفزو المجتمع الباريسي بفضل معارفه وقدرته الذهنية .

هذا النموذج عن شاب يمتلك قدرة روحية شبيهة بما يمتلك بلزلك ، استهوته أكثر من مرة ، قبل العام ١٨٣٦ ، ففيكتور موربون الأسطوري الذي كتب المؤلف سيرته الذاتية في **إنذار الفتى** (وهو العنوان الأول الذي فكر به لرواية **الثائرين الملكيين**) يتمتع « بمخيلة خارقة » تتيح له أن يتقمص حياة أشخاص أحلامه ، وأن يطبع بميسم الحقيقة حوادث الطبيعة وأحداث الحياة الاجتماعية التي تصنعها قراراته ؛ ورفاييل دي فالنتين بطل **جلد الكآبة** والمؤلف المتخيل **لنظرية في الإرادة** يفهم اللغة الخفية للأشياء التي تحيط به ؛ ولويس لامبر « الذي ألف وهو حدث آلية تركيز القوى البشرية الصعبة » يعرف سر الكلمات والكلام « وقد منح نوعاً من الاستبصار » .

هذه النفس الثانية للروائي تلتقط تعقد الوقائع ، وتتمثل بحدّة غريبة مختلف فصول الرواية ، وهي تجهل قسر المكان ، وتدرك مبدأ وحدة العالم .

غير أن شخصية القاص – مع تماثلها وهذه العبقريات التي تتعرض مفامرتها الروحية لفشل ذريع – لها في قصة فاسنيو كان فرادتها الخاصة ، فهي تلجأ الى قواها المعنوية ليس من أجل أن تقدّ وجوداً « عذباً وخادعاً » كرفاييل أو لتعيش تجربة ملائكية كلويس لامبر ، إنما لتدرك جيداً الحقيقة الاجتماعية لعصرها . وإن كان المؤلف قد أراد أن يلتقط « هذه المشاهد الرائعة المأساوية أو الهزئية ، هذه التحف التي تولدها الصدفة » التي يقدمها مشهد الشارع ، فذلك ليستوحجها في عمله الخلاق ؛ وبالرغم من أنه يعرف أن الإسراف في استخدام قدراته المعنوية يهدد وجوده ، فإنه يستخدم هبة استبصاره ليكتشف عصره ؛ فقصاص **فاسنيو كان** يعرف طموح بلزلك في الكتابة « عن فرنسة القرن التاسع عشر ، هذا الكتاب الذي نأسف جميعاً لأن رومة ، وأثينا ، وصور ، وممفيس ، وبلاد العجم ، والهند ، لم يتركوا مثله ، للأسف ، عن حضاراتهم » .

كانت مقولة الملاحظة الحدسية تشغل معاصري الروائي ، فلذلك قارىء سلسلة « **النسك** » ليفكتور جوزيف إيتين الملقب بجوي ، يمكن أن يكون قد تأثر ببعض ملاحظات فيزيولوجي الطبائع والعادات الباريسية في عهد رجوع الملكية : « اتغلغل في صميم ما أراه ، وقد وهبت نظرة اندسائية تظهر لي الأشخاص في ظاهرهم وفي باطنهم وأكشف حتى في لحظات هدوئهم أسباب تصرفاتهم ؛ استمع الى لغة نظراتهم ، وحركاتهم وحتى إلى صمتهم » .

إن محاولة جوي تذكر بمحاولة مؤلف **فاسينو كان** الذي يصف « أولاً » قدرته على أن يتقمص حياة الفرد « الذي يسلط عليه نظرتة ، ويعطي بعد ذلك أمثلة أخاذة عن الاستعضات الحدسية .

ذكرى قراءة أخرى يمكن أن توجه ريشة بلزاك عند انشاء مطلع **فاسينو كان** وهي قصة **الانكليزي آكل الأخيون** ، وقد اطلع بلزاك على مؤلف توماس دي كينسي في ترجمة الفريد دي موسيه - الشاب - التي ظهرت في العام ١٨٢٨ ، واستوحى منها سابقاً في « فنتازيته » المعنونة « **أفيون** » (١) وفي **جلد الكآبة** ، وستذكرها في **ماسيميلادون** ، وهي قصة موسيقية ، فينيسية ، **لاحقة لفاسينو كان** ؛ فبعد أن بين الممرات المتحققة في الأوبرا تحت تأثير الأفيون « الذي يزيد من قدرات الروح » يكتب توماس كينسي :

« لكن متعة أخرى لا يمكن أن أحس بها إلا مساء السبت ، وهي تتصارع مع حبي للمتعة الأولى ... ليس لدي أي عمل يتطلب الراحة بعده ، ولا أية أجرة اتقاضها ، هذا واقع أيها القارئ البصير . لكنك تعرف أن هناك أرواحاً رحيمة تحب أن تشارك الفقراء آلامهم وتواسيهم ؛ أما أنا فأحب مشاركتهم في حسراتهم ... فأذهب دون أن أنظر الى الاتجاه ، أو المسافة ، الى جميع الساحات ، وجميع أماكن المدينة ،

(١) نشرت في مجلة كاريكاتور بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٨٢٠ تحت اسم مستعار هو « الكونت اليكس دي ب » .

التي يأتي إليها الفقراء مساء السبت ليتقاضوا أجره الأسبوع ؛ أكثر من عائلة تتكون من رجل واحدة وامراته ، وأحياناً مع واحد أو اثنين من أولاده ، تتشاور عن كيفية تمضية النهار ، وعن مسراتها ، ومتاعبها ، تتحدث عن أسعار ضروريات العائلة . شيئاً فشيئاً انتلفت مع رغباتهم ، وورطاتهم ، وآرائهم . أحياناً يمكن أن نسمع تمتمات تذرر ؛ لكن في الغالب لا نجد إلا التعبير الأخرس أو الصريح عن الصبر والرجاء ، والطمأنينة . اينما تسنح لي الفرصة دون أن أسبب مضايقة ، أشارك في الحديث ، فيلقى رأيي في الموضوع المناقش ، أو المثار بدكاء ، كل ترحيب ؛ فإذا كانت الأسعار قليلة الارتفاع ، أو رؤي أن ثمن البصل أو الزبدة سينخفض فإن ذلك يسعدني ، غير أنني في حال العكس ، أترك المكان وأسأل أفيوني المواساة .

من المؤكد أن المتعة الأنانية في معاشرة بؤساء لندن قد تحولت سريعاً لدى كينسي الى تعاطف عميق مع الفقراء ، غير أن شدة التقمص النفسي هي أكبر بكثير عند قصاص فاسيو كان ، الشاب العائش بزهدي في شارع لديفر منها لدى مدمن الأفيون الانكليزي ، وكينسي لم يقترن إلا بالفكر مع هموم البروليتاريا أما بلزك فهو يشعر « بأسمالهم فوق ظهره » .

وهكذا من المناسب الا نعطي إلا دوراً محدداً للمصادر الكتبية في إضاءة تكوّن القسم الأول من فاسينو كان . أن تكون كاتباً كبيراً ، جان جاك ومكتب خطوط الطول هذه هي القضية « هذا ما كتبه بلزك في نظرية المنهج في العام ١٨٣٣ ، وهو بفضل مواهبه الاستثنائية التي يجهد في تحديدها ، يتوصل الى التوفيق بين متطلبات متناقضة في الظاهر ، فيؤكد في مقدمة جلد الكتابة بأن « نوعاً من الاستبصار » يسمح للكاتب « بأن يخمن الحقيقة في جميع أوضاعها الممكنة ، أو بتعبير أفضل ، لا أعلم أي قدرة تنقلهم الا الى المكان المناسب حيث يريدون أن يكونوا . إنهم يكتشفون الحقيقة بالمائلة ، أو يرون الشيء الواجب وصفه ، سواء يتيان هذا الشيء اليهم أو بذهابهم هم نحوه » .

هذا النص النظري الهام يؤكد أيضاً على الدور الذي تلعبه الفكرة ،
وعلى القدرة في استحضار « الأشياء الملاحظة سابقاً » في سيرورة
الخلق الفني .

إن دراسات التكون المنشورة خلال هذه السنوات الأخيرة تتيح
تقدير هذه التصريحات حق قدرها ؛ فبلازك لم يخلق أبداً من عدم ،
بل يستخدم مواهبه كصاحب رؤيا ، فيضم مختلف العناصر الملاحظة
مباشرة في الواقع ، ليحولها ، ويشطرها ويركبها تحت إملاء مخيلته ،
وتصوراته السابقة ، وأوهامه الداخلية ، مع تقيده بالمتطلبات الجمالية
للمهارة انسانية .

إن بطل القصة الإيطالي الملقب « دوج » من قبل رفاقه ، الذين
يسخرون منه . لا يمت بصلة باستثناء اسمه إلى فاسينو كان التاريخي
(١٣٦٠ - ١٤١٣) ، قائد المرتزقة البيومونتي الشهير الذي لا دور له أبداً
في تاريخ البندقية . إن بعض بيانات النص المتعلقة بالمصير البائس لكان
تتيح الافتراض بأن بلازك ، مؤلف «المبعدين» في العام ١٨٣١ ، والصديق
الوفاي لفيدوبوني - فيسكونتي ، الحساس للجو المتعاطف مع الإيطاليين في
السنوات ١٨٣٠ - ١٨٣٣ (مجلة المنفي ظهرت في العام ١٨٢٣ ، وترجمة
سنوات سجنني لسيلفيو بليكو نشرت في العام ١٨٣٣) ، قد صادف أحد
المهاجرين فتذكره وهو ينشيء قصة الفينيسي . لكن يحتمل أن الروائي
قد فكر عند وضع هوية شخصيته القصصية بآل كان كان وهم عائلة
إيرلندية كان يساكنها في تور في السنوات الأولى لاقامته في أندر ولوار ؛
وقد تحول الاسم الانكليزي كان (وهو يلفظ كانه في تورين) الى اسم
إيطالي . وهذا يقودنا الى البحث عن الأصول التورينية للقصة التي
صنفت في العام ١٨٤٣ تحت عنوان الأب كانه في أسرار الأقاليم وهي
مجموعة مختارات نشرها هـ. سوثرين .

الواقع ان في بداية رواية امرأة في الثلاثين وفي وصف يتصدى
لالتقاء نهر السيز مع اللوار (وقد نشر في البدء في مجلة لاسيلويت بتاريخ

شباط ١٨٣٠) تفتن تور بالبندقية : « عبر الاغصان الطريقة المورقة التي تفرم الجزر ، وفي أقصى اللوحة ، تبدو تور كالبندقية تخرج من أحضان الماء » ؛ من جهة أخرى نلاحظ أن قصة **المعلم كورنيليوس** ، المتولدة من زيارة لبلازاك ليلسي - لي - تور تشترك في أكثر من نقطة مع قصة **فاسينو كان** ، المصاب بالعمى « للاسراف بتمكته من الرؤية » ، وهذا ما يذكر بكورنيليوس هو غورست الذي انقلب هواه للذهب ضده ، ففدا هذا الساهي الفلمندي في آن واحد سارقاً ومسروقاً ، وفاسينو هو أولا سارق قبل أن يجرد من ثروته ، وكل من هاتين الشخصيتين يدفعه شيطان داخلي لبحث عن أملاكه الضائعة . والمعلم كورنيليوس . الذي يخشى تصرفاته في الحالة الثانية من النوم يقضي من هول العذاب الذي خلقه لنفسه ، بينما فاسينو كان الذي أضعفه التوق الى الذهب يموت بعد سقام شهرين .

خارج مقولة الكنز المخبوء المسبب لضياح من يريدون الاستيلاء عليه ، فإن مصدراً أدبياً مشتركاً يربط بين القصتين ، ويبدو أكيداً أن بلازاك قد تذكر بمناسبة المعلم كورنيليوس ، الجواهري رينه كاردياك بطل **الإنسة دي سكودري لهوفمان** ، المدفوع بجشع إجرامي يقتل على أثره زبائنه ليستعيد الحلبي التي سلمها لهم . ومن أجل أن يشرح إلى صانعه أوليفيه ، الشاهد العفوي لإحدى جرائمه ، نشأة هذا الهوى الإجرامي ، يكشف المعلم كاردياك عن أن أمه في فترة حملها به ، شعرت برغبة لا تقاوم في امتلاك قلادة من الحجارة الكريمة كان يتزين بها سيدها الشاب الذي لم تستجب للملاحقاته ؛ وقد قال :

« إن اناسا ذوي علم يتحدثون كثيرا عن إحساسات غريبة تصيب النسوة في فترة حملهن وعن تأثير هذه الاحساسات على الجنين الذي يحملنه في أحشائهن » والحال أن فاسينو كان قد أبدى ملاحظة مماثلة ليبرر هوسه الأحادي ؛ وقد قال « سواء كانت نزوات المرأة تؤثر أو لا تؤثر على طفلها في فترة حملها أو تكوته ، فمن المؤكد أن أمي كانت تهوى الذهب خلال حملها » . عدا عن ذلك ، يعترف كاردياك بأنه ، منذ

حدثته ، كان يفضل - لي الذهب على الالاميس ، وفي سن المراهقة كان يسرق الذهب والحلي : « كنت اميز بالفريزة الحلي الحقيقية من الزيفة ، كما يمكن أن يفعل الخبراء الأكثر مراسا » كذلك فاسينو كان ، في شبابه ، كان يتقلد دائما الحلي ، وبعد أن أصبح أعمى ، كان يتوقف أمام متاجر الصاغة . »

نلاحظ أخيرا أن المذكرة الايضاحية التي اضافها هوفمان الى روايته يمكن أن تشرح التدرج بين الفرنسي كاردياك والفينيسي فاسينو كان .

البندقية ، في فكر بلزاك ، بالرغم من اقترانها بتور ، مدينة شيطانية ، مدينة السجون ، والماء الآسن ، والجريمة الخفية والانتقام ، تماثل في ذلك باريس : ومؤلف **جلد الكتابة** يقارن السقيفة التي يسكنها رفايل دي فالنتين « بققص جدير برصاص البندقية » ويذكر في **فراغوس** ، في معرض حديثه عن جزيرة سان لويس ، هذه «الفينيسيا الباريسية» ، بأن شوارع هذا الحي توحى الى المتنزه « بكآبة عصبية » ؛ وفي **فاسينو كان** تذكره مياه حفر الباستيل السوداء بمياه أقية فينيسية الآسنة .

هذه الصور تلفت انتباه القارئ الى الروابط العميقة الموجودة بين القسم الأول « الباريسي » والقسم الثاني « الفينيسي » في الرواية ؛ والقسمات العامة المميزة للكاتب لقاطن في شارع لديغير والعجوز فاسينو كان .

التشابه بين عمر القاص في العام ١٨٣٦ وعمر فاسينو كان في ١٨٢٠ يعطي للشباب الشعور بأنهم في عصر يتذكرونه ، وهذا مايلفت النظر مباشرة ، فمؤلف القصة يرتد إلى ماضيه وهو في سن العشرين عندما

(١) استعملنا اسمى فينيسية والتبدلية لصمغية ولجانا للاسم الأول عند النسبة خاصة .

صادف فاسينو كان ، وهذا الأخير يصرح له بأنه كان في مثل عمره عندما بدأ مفامراته الفينيسية ، ومثقف الماريه الشاب ، الباحث عن المآسي البشرية الدفينة في « مدينة الآلام هذه » يمتلك هبة الاستبصار « وحلم الرجل اليقظ » وهو يتوصل إلى التقمص نفسياً في المارة الذين يلاحظهم ، وفاسينو كان من جهته لديه القدرة على الإحساس بالذهب « وهو يقظ كما في حلم » ويرى الذهب والالاميس بهذه الحدة ذاتها التي تميز الرؤية الحدسية لمحدثه الشاب. والشخصيتان لا يرتدان إلى الشرق الاسطوري، فملاحظ طبائع الضاحية يمارس موهبته الاستثنائية على طريقة درويش **الف ليلة وليلة** ، والفينيسي يعده بالفنى كما في **الف ليلة وليلة** وهكذا تتلاقى أفكارهما بسرعة لأن العمى يجعل الاتصالات الذهنية اكثر سرعة بتجنب الانتباه من التشتت على أشياء خارجية .

من جهة اخرى « كل شيء متناسق في الانسان وفقا للافاثر الذي يستشهد به بلزك في **نظرية المنهج** فنعمة الاستبصار والقدرة على رؤية الذهب بعين الروح تنفيذان من المنبع الطاقى ذاته ، منبع الموائع العصبية ، لكن اللجوء المفرط إلى هذه القوة في الكائن الداخلى تهدم الحياة النفسية وتدمر الجسم ، وقد شعر القاص بجلاء بأنه مهدد باختلال العقلي فتساءل : « من اين هذه الهبة ؟ اتكون استبصارا ؟ او احدى هذه المزايا التي يقود اسرافها الى الجنون ؟ ، وفاسينو كان ، وقد دمرته رغبته المفرطة والمستبدة للذهب يعترف : « أنا لا أشك بأن هذه العاهة هي نتيجة مكوثي في الزنزانة ونقبي للجدار الحجري ، هذا إذا لم يكن تمكني من رؤية المذهب قد حملت الي فرط قدرة بصرية هيأتني لفقدان نور العينين » . هذا الافراط الذي نال منه جسمياً اضعفه أيضاً فكرياً، ففي قصة مفامراته المتحمسة يستعمل سبع عشرة مرة كلمة **ذهب** وست مرات كلمة **كثر** ، وتعابير عديدة تحوي صوت « الذهب » الذي يعبر عن قوة هيجانه المدمر . والاستعارات الضوئية المستخدمة من قبل بلزك في معرض حديثه عن الأعمى الفينيسي (مثل يريق لاهب) وحريق اليأس واللهب الأزرق) يكشف عن غرائز لا تقهر تسيطر على الشخصية .

يظهر منذ بدء القصة وحتى نهايتها تفاهم عميق وتلقائي بين القاص ومخاطبه وهذا الأخير ، يذكر ، الى حد ما ، بلزاك ذاته ، المستكشف المستقبلي لناجم الفضة في سردينية ، وقد تسلط عليه وفقا لتعبير تيوفيل غوتيه « حلم ثروة مفاجئة تهيؤها وسيلة غريبة عجيبة » .

هذه الذات الثانية الجديدة المصابة بالعمى لفرط قدرتها البصرية ، التي لا تتمكن من التحكم بمخيلتها المطلقة العنان ، تصور وتحرض في آن معا الخوف من الجنون الذي شعر به الروائي منذ إبداعه لويس لامبر .

« ان ينافس الحالة المدنية » ، وينسب لنفسه قدرة دميورج محرك الكون، مشروع قلق للكاتب، يريد ان يحياه ، لان بلزاك يطبق نظرية « الفكر أقتاتل على وضعه الخاص بالذات ، وهو يعلم أن موهبة الحدس لديه ، التي تتيح له ان يكتشف علاقات غير ظاهرة للملاحظ العادي تنزح من منبع الطاقات الحيوية ذاته . غير انه يخلق شخصية مدعي الرؤى ، سارق الكنز الخائر القوي الذي تستعصي عليه الكلمات ، أمكنه ان يحقق تصوره الوهمي للغمى ويعيش الجنون الذي يخشاه ، ويسيطر في الوقت ذاته على الخشية من التشوش النفسي ، ويعطي لأحلامه اليقظة شكلا تفقد فيه أي طابع شخصي يمكن أن ينفر الغرباء ويصبح مصدر متعة للآخرين .

فاسينو كان قصة واقعية ، وقصيدة خارقة تستوحى اسطورة الذهب وهو في بؤرة الاهتمامات الذهنية والروحية التي تعهدا مؤلف غوبسك ؛ الذهب الذي يمثل «كل القوى البشرية» ويؤمن «امتلاك العالم بدون تمب» . لكنه يجسد قوة شريرة مدمرة للشخصية منافية لنحب والانفتاح البشري .

وبلزاك ، بفضل اهتمامه بالأساطير المعاصرة ، يتوصل لاعطاء معنى فلسفي لصورة الحاضر الكبيرة التي يصفها في مؤلفاته . كل شيء اسطوري ورمز في فاسينو كان . . هذه التحفة من عدة صفحات هي صورة **المهارة الانسانية** .

الفهرس

| | |
|----|---------------------------|
| ٣ | اسرار الاميرة دي كلدينيان |
| ٧١ | دراسة حول القصة والمؤلف |
| ٨١ | فاسينو كان |
| ٩٩ | دراسة حول القصة والمؤلف |

۱۹۹۹/۱۲/۱۶ ۲۰..

يشرح بلزак نفسه حقيقة رواية الأميرة
دي كادينيان فيكتب:

إنها أكبر كوميديا أخلاقية وُجدت. إنها
تراكم أكاذيب تمكنت بواسطتها امرأة في
السابعة والثلاثين من العمر هي الدوقة
التي صارت بالوراثة أميرة، دي كادينيان،
(ان تظهر بمظهر قديسة وفاضلة ومتميزة
أمام عشيقها الرابع عشر) وهي نفسها
كانت تصرح بأن (مولي) عشيقها الأول
وهواها الوحيد الحقيقي.

الرواية هي مصير الارستقراطية في
مرحلة بدأت تسيطر على البرجوازية.
فاسينوكان عازف مكفوف في ثلاثي
للمكفوفين، يتذكر أنه عندما كان شاباً
كان يعشق الذهب ويسعى إليه بكل
الوسائل فاسينوكان شخص حقيقي من
فينيسيا.

كان في يوم من الأيام صديقاً لبلزاك
الذي تمكن بفضل موهبته من أن يجمع بين
قصة هذا الشاب وأسطورة الذهب الذي
يمثل قوى البشرية كلها. وهو في الوقت
ذاته قوة شريرة مدمرة.

الطبعة وفضل الله للوزارة مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

في الأقطار العربية ما يعادل

٢٠٠ ل.س

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س